

بقلم الآنسة « مي »

نشرته

ادارة « الهلال »

مطبعة الهلال بشارع نوبار بمصر

سنة ١٩٢٢

فيما يلي صورة كتاب بخط المرحوم ولي الدين بك يكن يقترح فيه على الآنسة مي جمع سوانحها في كتاب . ولا ريب ان هذا الاثر النفيس هو خير ما ينشر مقدمة لسوانح أديبتنا الكبيرة — لا سيما وان صاحبهُ كتبهُ لهذا الغرض

ادارة الهلال

الى شاعرة الشرق الآنسة مي

مصر في ٢٤ ابريل ١٩١٣

سيدتي :

وددت لو الهمت من الكلام ما يكون حتى ينتهي اليك في اوجك العالي . انا حيران . انظر فارى فضلك باهراً وتصبو نفسي الى تلك المحاسن . ثم تستوقفني عرفاني بعجزي . يا بيت القصيد في بدائع القدرة . ليهنأك العيد ولتفخر بنت ايزيس واوزيريس .

لا ادري ما أصف مجالسك الطيبة ام صوتك الرخيم ام كلامك العذب ام فكرك المنير . اقل ما في هذه الملاحظات يدق عن فكري ويجل عن الاحاطة به ادراكي .

كانت لي في دولة الشعر مكانة واليوم اشعر انني اكاد اهوي من عليائي . انت كالطبيعة في كل بدائعها ولكنها متقلبة وانت ثابتة . ولا اقرنك الى من سبقك من سيدات الشرق ولا من جاوزتهن من سيدات الغرب ولا اقول انك حمامة الدوح فتلك عجماء وانت معربة ولكني اقول انك بلبل الشعر الصادح في روضة الحياة .

وصوتك الفضة تعلو بالمدارك وتثير جوانب النفوس
فلا تغيرك كالأوراق التي تخضر في الربيع وتذوي في الشتاء.
اجعلها جنة غضة وكللها بـ - ودُس هذه الأعوام - الناس
في حاجة إلى هذه الأنغام الإلهية .

سيدي
هذه تحية محب وشاد أضعها تحت أقدامك فإن
بلغت ذلك المقام فحسبي

مع الخضوع

السانحة الاولى

نحن الفتيات أسيرات الأزياء ، وعبدات التبرُّج ، ولُعَب الاهواء — أنكتب نحن فتيات اليوم ؟

نعم ، صرنا نكتب ليس بمعنى تسويد الصحائف فحسبُ بل بمعنى الانتباه للشعور قبل التحبير . لقد خبرنا الاختلاء بذواتنا فأقبلنا على تفهم معاني الحياة نتفرس في المشاهد بأبصارٍ جديدة ، ونصغي الى الاصوات بمسامع منتبهة ، ونشوق الى الحرية والاستقلال بقلوبٍ طروبة ، ونعبِّرُ عن النزعات بأقلامٍ يشفعُ الاخلاصُ في تردُّدها . إن الأمر لكذلك . وجرأتنا هذه لم تبدُ من اللائي سبقننا ، وإقدامنا لم يألفه الرجل من سوانا ، والجمهور يرقبنا بنظرةٍ خاصة تائقاً الى تصفُّح نفس المرأة في ما تصفُ به ذاتها وليس في ما يرويه عنها الكاتبون

وما الغرض من ذلك ؟

يزعم الجمهور إن رغبته في تذوّق إنشاءِ المرأة لا تُعرب عن إكبارهِ لذلك الإِنشاء ، أو عن اقرارهِ بصدق الفراسة منها . وإنما لان في كتابتها مظهراً من مظاهر الذات النسائية العامة

خطوةٌ صالحة نحو تكريم الأدب النسائي ، الآان فيها من الظلم وغمط الحقوق ما فيها . نحن نحبُّ الحِلم ، ونطلب التساهل ، ونريد ان يستعان في الحكم علينا « بالظروف المخففة » ـ كما يقول سادتنا الحقوقيون . نريد ذلك لأننا مبتدئات . نريده لأننا مبتدئات ولأننا بنات يومٍ تشرق علينا شمسه نخلق أنفسنا بأيدينا ، ونكتشفُ الطرق في غاباتٍ مهجورة ، ونمهد السُبُل بين الصخور والأدغال لنا وللآتيات بعدنا

إفساح المجال علينا عسير . فنشكرُ للحليم تغاضيه عن القصور في عملنا وانتباهه لضآلة وراثتنا في عالم القلم ـ كما نشكر للناقد الكيّس ما يُبيّنهُ لنا من أغلاطٍ ناتجةٍ عن ضعف الفتاة وقلة اختبارها . ولكنهُ لا يجوز في

شرع العدل والحقيقة ان تُرمى جميع أعمالنا بالضعف النسائي وان يطلق عليها الحكم بلا بحثٍ ومقارنةٍ

لقد غالى بعض المفكرين ، لا سيما بعض الذين أقنعوا نفوسهم بأنهم مفكرون ؛ لقد غالى هؤلاء في فصل المرأة عن النوع الانساني الذي كادوا يحصرونه في الرجل. والواقع ان كلَّ حميّة تهزُّ المرأة إنما تنطلق من النفس الانسانية الشاملة ، وكلُّ نقص يشوبها إنما يرجعُ الى العجز البشري الشائع ، وكلُّ أثرٍ من آثار ذكائها إنما هو وجهٌ من وجوه الفكر الانساني العام

احرصي على قلبك

أرخى الشفقُ سدولهُ على الأرض بطيئاً
ولفقَت حواشي السحُب بخيوط الذهب والفضّة ،
وتلاشى ما كان يبدو كبحيرات الياقوت وبرك الزمرّد
حيال عرش الغروب ،
وغشَت الأرض كآبةٌ ربداء ،
وغشَت عينيكِ كآبة ربداء ؛
أيُ شمس تغيبُ فيكِ ، أيتها الفتاة ، ولماذا يُشجيكِ
المساء لتغشى عينيكِ هذه الكآبة الربداء ؟
ألا احرصي على قلبكِ ، أيتها الفتاة !

* * *

تجلّت الشمسُ في الأوج تحت رواقِ الفلك ،
والاشعة تغازل الأزهار وتوسع المياه عناقاً وتلويناً ،
والمنازلُ تسطع كحجارة كبيرة من نور ؛

وانتعشت جميع الاشياء انتعاش من خرج من أزمةٍ إنفرج ،

أما أنتِ فتلوبين جائعةً عطشى ،

تقولين ما يجب ألاَّ يُقال وتفعلين ما يجب ألا يُفعل ،

ثم تأسفين على القول والفعل وتعودين تلوبين ـ

ووراءَ المللِ والسآمة وهيجٌ فيكِ واحتدام ؛

اخبريني ما بكِ ، أيتها الفتاة !

لماذا أراكِ عند نافذتي ترقبين ما ليس بالموجود وتشتافين ما ليس بالبادي ؟

واذا تحولتُ عنكِ الى مرآتي رأيتُ هناك وجهك مفجعاً حزيناً ؟

أهو أملٌ غزا نفسكِ فثقُل على فؤادٍ منكِ اعتاد القنوط ؟

أم قرب تهليل الأمل يأسٌ ينتحبُ وشعورٌ بالفشل طالما خالط الرجاء ؟

جميع الاشـياء انتعشت انتعاش من خرج من أزمة
وانفرج
وأنتِ أيُّ علّة تضنكِ فتلوبين وتتأوهين ؟
ألا احرصي على قلبكِ ، أيتها الفتاة !

* * *

جاء المساء مرةً أخرى ؛ جاءَ المساء وتبعه الليل
وعيناكَ قرب السراج جامدتان جمود من يتأمل جثة
فأشعر بأن شيئاً فيك أمسى جثة
لقد استسلمت لجمال المساء فطعنك المساء بسكينٍ منه
سريّ يقطرُ دماً وظلاماً
أخضعتِ نفسك لسحرِ الغروب ولم تحرصي على
قلبك !
أما الآن وقد فرطتِ به فاحرصي على الجرح المنفتح
فيه –
احرصي على جرح قلبك ، أيّتها الفتاة !

ذكرى قلعة بعلبك

« معبد الاسرار قام ولكن صنعه كان أعظم الاسرار »

خليل مطران

تحرّك القطار صباحاً في محطة بيروت وهو يهدر ويزمجرُ ويقذف دخاناً كثيفاً أثقل الهواء وترامى على صفحة الامواج فعكّر صفاءها . وما فتىء زئيرهُ الهائل كزئير الاسود يترددُ في جوانب الفضاء حتى كاد الصدى منه ينتهي الى أخربة بعلبك هامساً « لقد سبقتُ الآخرين لأهزأ بكِ ، يا أشباح البلى ، اهزأ بكِ في نقمتي على أناسٍ يستخدمونني أنا إحدى آيات الاختراع الحديث ليزوروكِ — انتِ رمال الليالي الغاديات وبقايا الأيام الخوالي ! »

وما لبث ان اسرع القطار في سيره متلوياً بين الأشجار ، وكأن سخطه هدأ تحت قبلات نسيم الجبال فخفّ زئيرهُ ؛ وتدرَّج متسلقاً اكتاف لبنان يتركُ محطة

ويمرُّ بأخرى حتى وقف في محطة صوفر ، وهي أَعلى نقطة فوق وادي حمَّانا — ذلك الوادي الذي قال فيه لامرتين انهُ أجمل أودية العالم القديم . هناك تتطوَّى التلالُ كالأقمشة الحريرية وتمتد لمداعبة أطراف الجبال المحاذية ، تتناسق بينها دوائر أظلَّتها الاشجار ، وتتخللها القرى ذوات المساكن البيضاء متوَّجةً بالقرميد الأحمر . وهناك هنك على الشاطىء البعيد ربضت الآكام كأسودٍ تحمي بحراً بسط لديها زرقتهُ الفسيحة وارتفع عند الافق كمن يستمدّ من الجوِّ نعمةً ما . هذا وبيروت تستوي على شفة البحر استواء المليكة على عرشها

ثم أخذ القطارُ ينحدرُ الى سهول البقاع وقد قامت على جانبيها سلسلتا جبال لبنان وانتي لبنان كما تحدق اسوار الدهر بعروج الأبدية . وبعد السير في السهل نحو ثلاث ساعات تراءى لنا في عصارى النهار طيفُ مدينة « باعال » يحيط بها نطاق سندسي من شجر الفاكهة والحور الرجراج ، وتتعالى فوق المنازل منها والحدائق أعمدةُ هيكل الشمس

بقدودها الهيفاء . أعمدة ستة هي كل ما سلم في وسط ذلك التهدّم ، وكأنها من أبعادِ وحشتها تنادي المسافر قائلةً : « تعالَ انظر اليَّ أيهذا المارّ ، فهل عرفت حزناً أشد من حزني ؟ »

بقيةٌ عظيمةٌ من عظمةٍ بائدة حيالها أضخم الأشجار أعشاب ، ذاك هو شبح الماضي المحاول تخليد الأصنام المعبودة . . . وثلوج لبنان التي رأت يوماً من مدينة الشمس أبراج العزّ متعاليـة في الفضاء ، تطلُّ الآن من شاهق « فم الميزاب » و « ظهر القضيب » مستفسرة عن سرّ هدم المعابد والأبراج

منذ ألوف الاعوام والثلوج تتراكم على هذه الذرى ، فالشمس تشرق ثم تغيب ، والصيف يأتي ويذهب الشتاء ؛ وقلعة بعلبك موحشة في عظمتها المحطمة ؛ بينما ثلوج لبنان تطـل عليها مستفهمـة أيّ خطبٍ جرى ولـكنها لا تفهم

* * *

تجسّم حزني وجثا عند أعتاب القلعة باكياً . ولستُ أدري أبكى هناك اسفاً على أعجوبة الدهور أم اكتئاباً لمشهد درجات أوجدتها هناك يدُ الغريب

عند مدخل هذا الهيكل الذي ألقت اسسه شعوب شرقية جاء الأجنبي يضعُ درجات توصلهُ الى معابد الشرق القديم . مشهد أفعم نفسي غماًّ كأن هذه الحجارة ثقُلت عليَّ لأنها دليل تدخُّل الغربيّ في قديمنا وجديدنا ، وعنوان طمعه في الاستيلاء على بلادنا . وكان أحرى به ان يتركنا وتراب هياكلنا الغالي دون ان تأتي يده عاملة للترميم والاصلاح — ومدنسة ما قدَّستهُ دهور البلايا وعزَّزته بلايا الدهور

دخلتُ امشي الهوينا بين اكوام الأخربة وبقايا الأبنية ، بين الاعمدة المطروحة على الحضيض كالعمالقة ورؤوس الاسود المتعانقة في تهشمها عناقاً أبدياً ، بين آثار شعب لاحق تختلطُ بآثار شعب سابق ، والتراب يتراكم في كل مكان متجمعاً في الأفاريز المرضضة والنقوش المحفّرة .

مشيتُ في عالمٍ مشوّهٍ من البدائع الفنية دهشة كيف سطا الزمان عليها ، كأنها غابةٌ هاجمتها الزوابع فكسَّرت منها الاشجار ، واقتلعت الاصول ، وتركت الاغصان ملقاةً على حضيض الهوان

أين من هذه الضخامة والمتانة قصور عصرنا وصروحه ! انها لتخال ألاعيب صبيانية شيدت ساعة فراغ ولهوٍ ، فيها الحدى تقوم مقام الحجارة والأشبارُ منها توازي الأميال .

لقد تألَّبت الشعوب على هذا الهيكل فهاجمت جدران مجدهِ وخرَّبت بديع معالمه . وحوَّل المسيحيون جانباً منهُ الى كنيسة فشادوا المذابح على قوائم معابد الاصنام . ثم انقلبت الكنيسة وما يحيط بها قلعة اسلامية حتى فاجأتها الزلازل فتخلخت منها الاسس وانهارت الجدران ، ودكت ذلك العزّ إغارات الطبيعة بعد أن طغت عليه يد الانسان

لكنَّ آثار المجد في بعلبك ظاهرةٌ باقية . والنفس

العصرية تقف مترددة بين الهزوء والاحترام امام معابد آلهة خرافية تضحكنا الآن اسماؤها ، وتتعاقب عليها مشاعر جمة من خوف وشفقة واعجاب وسخرية لتتغلب عليها عاطفة تضمُّ في رحابها قوى النفس جميعاً ، وهي الشعور بعمق السرِّ العظيم ، سر البقاء رغم الفناء . . .

وهناك على مرتفع هيكل الشمس تقف أعمدة ستة حاملةً إفريزاً كأنه تاجٌ مكسّر تنحني تحته رؤوسها على وهدة عزّها المتفتت . وما انحناء تلك الاعمدة الا رثاء وتأبين ، بل هو التأبين الوحيد اللائق بهيكل بعلبك ...

وثلوج لبنان التي تجهل أيّ خطبٍ جرى تنظر من علٍ الى حزن الجماد الدهري وتودُّ أن تفهم علة انهيار الجدران والاعمدة والابراج وأنى لها ان تفهم . . .

* * *

ألا كسروا باليأس الأقلام ، وأزيلوا المداد عن الطروس ، وأسكتوا الشفاه المتكلمة ، وألجموا الايدي عن التحبير والكتابة !

رائحة الاكفان تفوح لدى هـذا التهدم الشامل وتتكشف معاني القبور ، وينتشر في الهواء عطر المجامر وتُعقد غيوم البخور ، وتعود الايادي القديمة الى نحر تلك الضحايا والقرابين على أنصاب لاشتها يدُ الدهور

كسروا الاقلام ومزقوا الطروس ! إنما هذا موقف لا تأبين فيه بغير حزن الجماد ولوعة النفوس

أحزنَ الجماد ، لا زلتَ للأفئدةِ مفطراً ما طرحت عِبرُ الزمان الجبابرة على حضيض الهوان ! ألوعةَ النفوس ، لا زلتِ لاذعة ما بتُرت سلسلة الآجال واعتلت حركة القلوب ! أآثار الحياة ، لا زلت غاليـةً كآمال المنى وسواد العيون ما ذوت الآمال بالمتأمل وما بيَّض سوادُ الموتِ سواد العيون ! أأعمدة بعلبك ، لا زلتِ مهشمة ، صامتة ، منحنية ، كئيبة ما سعى دبيبُ المنى في زوايا المهج وتمايلت أشباح الآلام والاوجاع طيَّ القلوب والصدور !

اذا هزأ الدهر بهذه الجدران المنيعة فماذا أنتم من الدهر منتظرون ؟ اذا مرت قدمُ الدهر على هذه المتانة الحصينة

فهرستها هرساً فماذا تعني بعد ذلك حركة قصبتكم الضئيلة ونقش طروسكم البالية ؟ أين من المسافة موضعها وما هو من الخلود نصيبها ؟

ضموا الى شفاهكم الاقلام والى قلوبكم الطروس ، دعوها تنطق يائساً وحباً باسم قلعة بعلبك ، ثم حطّموها وان عزّت ، ومزّقوها وان كانت شطراً من الارواح

الزمان يتابع المسير فويلاً لتربة تدوسها قدمه ! هنالك تزلزل الزلازل ، وتهدم السدود ، وتطغى البحار ، هناك يشعر الانسان بأنهُ عبد لحظات الاقدار وانهُ لا يعرف من اسرار الأرض غيرُ اسوداد الليل وابيضاض النهار . . .

(كتبت في أواخر سنة ١٩١١)

قتل النفوس

رأيتها تنظر الى الاشجار بعينين كئيبتين وشفتاها مطبقتان كأن قبلة الاسف طُبعت عليهما . كانت لي رفيقة في الصغر : تعلمنا شهوراً في مدرسةٍ واحدةٍ ، ودرسنا أمثولةً واحدةً ، وسمعنا إرشاداً واحداً ، وكبرنا فكانت تلك العلاقة الواهية متينة بيننا

قلتُ « ما لي أراكِ حزينة ؟ »

قالت « يحزنني الربيع »

قلتُ « اخبريني ما بكِ »

قالت « يحزنني الربيع . يحزنني ان أرى مواكبه الجميلة تسير في الفضاء فلا يراه البشر إلا من كوى ضيقة نُقبت في الجدران الحديدية التي أقامها المجتمع حول الأرواح . ويحزنني ألا أكون مستقلة بكوّتي وان يكون للآخرين حقوق عليهـا يفتحونها ويغلقونها كيفما شاءوا لا مثلما أريد »

قلت « ماذا يحزنك ؟ »

قالت « يحزنني الربيع . تحزنني هذه الازهار الزرقاء والصفراء والحمراء . انها تنوّر على أطراف الاغصان وتبرز جمالها وسط جمال الكون . انها تستنشقُ الهواءَ بكل ما فيها من قابلية وتتمتع بالحياة بكل ما فيها من استعداد . فلماذا قُدّر على بني الانسان أن يكونوا دون النبات حريةً ؟ »

قلتُ « قولي لي سبب حزنك ؟ »

قالت « مسئلة تافهة اعادت اليَّ التأمل في هذا الصباح كما نبهتهُ فيَّ قبل الآن . لي شقيقة تقطن الاسكندرية مع زوجها — ولي بها ولها بي ولع عظيم فنتكاتب مرةً في الاسبوع . على ان تمرّ رسائلها تحت نظر والدي ووالدتي وأخي وأختي وأخي الاصغر حتى تنتهي اليَّ بالتالي لأني أحدث أفراد العائلة سناً . ولا يُلقى خطابي اليها في صندوق البريد الا بعد ان يطلع عليه وينتقده ذويَّ . مع ان مراسلتنا عادية ساذجة ، لا أهميـة لها الا بكونها جزءاً من حياتنا . وليس لديَّ من سرٍّ أخفيه ولكني أريد

أن أحفظ حقي في أن يكون لديَّ أسرار . وهـذه المعاملة تعذبني منذ شهور لانها تنمّ عن ضعف ثقتهم بي وأنا لم أفعل قط ما يستوجب سوء الظن . وصرتُ أتألم كلما وردت اليَّ رسالة لأنها تذكرني بأن في بيتنا قلم مراقبة منظم »

ورفعت رأسها ناظرة الى الزهرات الفرحة بأنفاس الربيع وأرسلت زفرةً عميقة ، ثم قالت « معاملة كهذه تحملني على الشك في صلاحي وكرامتي . وقد يدفعني الغيظ والكبرياء الى فعل ما لا أفعلهُ لو كان لأهلي بي ثقة . النبات حرٌّ فلماذا لا يكون الناس أحراراً ؟ »

* * *

مسئلة تافهة في ذاتها . ولكنها تتكرّر بين الوالدين والأبناء فتفضي الى احد اثنين : التمرد او العبودية وكلاهما سيء . بل العبودية وحدها ممقوتة والتمرد نبيل في الغالب يدلُّ على القوة والحياة . ولكن كثيراً هم الابناء الذين يجدون ضغط الوالدين على حريتهم أمراً طبيعياً فلا يتألمون لأن نفوسهم عقيمة قاحلة لا ينمو فيها غير الشوك والعوسج

يتألفُ التهذيب من أعمـال وحركات متتابعة مدة أعوام بين الآباء والابناء كما يتركب تمرين الاعضاء من حركات مستطردة يأتيها الفرد في أوقات معينة فتكسبه خفةً ورشاقة وانتظاماً

وان لم يروّض المرء أعضاءه ضعفت وأمست ضخمة الشكل بطيئة الحركة ، وقد يذهب به الجمود الى فقد الصحة . فما الخلل الذي نراه الآن في تربيتنا الا نتيجة جمود الاعضاء المعنوية من نشء الاجيال الماضية ولاننا جميعاً عبيد الجهل المقيم والضغط القديم

لماذا تراقَب مراسلات الفتيات ؟ سمعتُ عن رجل ينهي شقيقتهُ عن مراسلة صديقة لها خوفاً من أن يطلع أخوها على تلك الرسائل ؛ ثم اتصل بي ان ذلك الرجل الذي يظن نفسهُ حراً أبياً (؟ !) يقضي ليلهُ وشقيقته هذه حول طاولة البوكر مع شبان آخرين وفتيات اخريات ؛ ورأيته وإياها يحتسيان الجمة في حانةٍ يتصاعد في جوانبها لهاث السكارى ؛ ورأيته فيما بعد داخلاً بها عارية النحر والذارعين الى المرقص

لتنتقل على وفق الايقاعات الموسيقية من يد رجل الى يد آخر . فضلاً عما يجيزه « تمديننا » الحديث من مداعبة كلامية يسميها الغربيون « فلورت » ويستعملها كثيرون منا دون ان يحاولوا ايجاد اسم لها

فكيف نوفق بين النقيضين ؟ بين التساهل في قبول العادات الاوربية المتفشية بيننا وبين الاستعباد الشرقي الراكد في مستنقعات نفوسنا ؟ ان هذا الخال في توازن التربية يعذب الشبيبة ويجعلها أليفة الحيرة والتردد جاهلة بهما قيمة الحياة . إنما الحياة في قيمة نفسها اليها . فكيف نهتدي الى قيمة الحياة التي لا تبرز الا للمنتبه المتيقظ الواثق من حريته في القول والعمل ـ كيف نهتدي اليها في هذا التناقض المبين : تناقض الضغط الشديد والتهور المجازف؟

* * *

انما التربية ترمي الى غايةٍ واحدة هي توسيع دائرة الحياة وتأهيل الفرد للسير بحذق والتصرف باعتدال بين تشعب الشؤون منستخرجاً وسائل السعادة والفائدة مما يحيط به . فان

لم تكن هذه الغاية نصب عيون الوالدين ولم تثقف الناشئة على مبادىء التهذيب القويم فقدت آمالنا بالمستقبل القريب وأول قواعد التهذيب معرفة الواجب ، وشرط معرفة الواجب الشعور بالحرية

أقول الحرية وأعنيها ، وهي ليست الاباحية كما يزعم كثيرون . والفرق بينهما ان للواحدة حدوداً تهدمها الاخرى وتتجاوزها

على الوالدين ان يقوموا بما عليهم نحو الابناء ثم فليتركوهم وشأنهم يأتون ما يميلون اليه والضمير الحي يراقبهم والخلق القويم يحميهم . فان جاء عملهم بخير كان فيه تعزية وتشجيع على المثابرة والاقدام ، وان جاء بشرٍّ كان أمثولة مفيدة ومادة اختبارٍ ينتفع بها في الكوارث والرزايا الماثلة سبل العمر

كل امرىءٍ يحيا حياتهُ وعليه ان يجد طريقهُ بين متشعب المسالك ، وهو مسؤول عن كل عملٍ يأتيه ويتحمل نتائجه ان فائدة وان أذىً . فالفتاة التي اعتادت الانقياد لآراء والديها

وعجزت عن اتيان عملٍ فرديٍ تدفعها اليهِ ارادتها بالاشتراك مع ضميرها ما هي الا عبدة قد تصير في المستقبل « والدة » ولكنها لا تصير « أمًّا » وان دعاها أبناؤها بهذا الاسم . لان في « الامومة » معنىً رفيعاً يسمو بالمرأة الى الاشراف على النفوس والافكار . والعبدة لا تربي الا عبيداً . ولا خير في رجالٍ ليس لهم من الرجولة غير ما يدَّعون ، ان هم سادوا فعلوا بالقوة الوحشية وهي مظهر من مظاهر العبودية . اولئك سوف يكونون ابداً اسرى الاهواء وعبيد الصغائر الهابطة بهم الى حيث لا يعلمون ، الى الفناء المعنوي ، الى الموت في الحياة

تربيتنا الناقصة جعلتنا نسيء الظن في كل شخصٍ وفي كل أمرٍ . ريح سموم تهبُّ على المجتمع فتصبغ الجو وما يحويه بلونٍ قاتم خبيث . ولو انصف الناس لحكموا على بعضهم بعدلٍ وصدقٍ فأراحوا واستراحوا . الخير أصلٌ في الحياة وليس الشرُّ شراً الا لاننا أشرار ، ولا ظلام حولنا الا الظلام المنبثق من شكوكنا وأحزاننا ومطامعنا

احتياجنا شديد الى مثل هذه الكلمة « ثقوا بالانسان ! »

اما جاءكم خبرُ ذلك العالم الالماني الذي كان يدفع الى ابنته البالغة من العمر ١٦ سنة رسائلها مختومة. ولما لامهُ أحدُ أصدقائه أجاب « ثقتي بالفطرة النسائية عظيمة. لا أقرأ رسائل ابنتي بل أعرض عليها رسائلي. وعوضاً عن ان اشحن دماغها بآرائي ونصائحي التي قد لا تتفق مع ظروف حياتها أسألها رأيها في كل ما يشكل عليَّ من الامور. فالمرأة أوفر من الرجل نبلاً لانها أقرب منه الى سرائر الاحوال وقلب الاشياء »

مع هذا الرجل الحكيم أقول « ثقوا بجوهر المرأة ! ثقوا بابنة اليوم تجدوا ابناء الغد أهلاً للثقة ! »

(ابريل سنة ١٩١٣)

رسائلنا اليوم وبالامس

بعض الأوامر السلطانية تستوقف نظر الأديب برشيق أسلوبها وبليغ إيجازها. منها الأمر الذي صدر بتعيين صاحب العزة محمود فخري بك[1] أميناً أول لعظمة السلطان. وما دامت سراي عابدين تهتم بأساليب الانشاء فحقَّ لمحبي الأدب ان يرجوا. ولو كنت رجلاً وجاز لي البحث في ما يختص بالرجال لتمنيتُ لدواوين الحكومة ان تحذو حذو السراي السلطانية فتتوب عن اللغة والأسلوب السقيمين المستعملين في أوامرها ومراسلاتها

اسمعك مزمجراً يا سيدي الرقيب، وقد اقترب قامك من جماتي هذه يقصد الفتك بها. فاصغ إليَّ غير مأمور! لا أنت جندي الماني ولا أنا جندي فرنسوي ولا هذه الصفحة كنيسة ريمس. فكن حليما ولا تحذف منها شيئاً.

---

(١) حضرة صاحب المعالي محمود فخري باشا اليوم

ثم أرجو ان تذكراني بدأت تلك الجملة بكلمة « لو » ، وهل أنتَ مَن يخفى عليه قول الفرنسيس بامكان وضع باريس في زجاجة اذا ما استعملت كلمة « لو » ؟ ولا أظنك محتجاً على وضع باريس في زجاجة ، على شريطة ان تكون الزجاجة غير المانية لئلا تملأ بالغازات السامة . وإني لموافقـة على ذلك . وكل هذا الكلام أقوله لأنسيك شطب تلك الجملة الاثيمة — أنساكها الله !

* * *

لقـد تحسن فنّ الانشاء في أيامنا . بالأمس كانوا يكتبون طويلاً دون ان يقولوا شيئاً إذ لم يكن معظم الرسائل غير استعارات محفوظة واسجاع مرصوصة . فبعـد « غب الشوق » الاصولية كان مراسلك يبعث اليك « بسلام ، لو كان ذا أجسام لملأ الارض بالتمام » — دون ان يترك للأرض هامشاً ! و « بتحيـات أزكى من النعامى (أو من « نفَس النعامى » لا أدري) بين ورق الخزامى » . كذلك يبدأ الخطاب بالسلام والتحيات والاشواق ويختمه

الاشواق والتحيات والسلام

أما الآن فاخذنا نكتب لنعبّر عن شيء نريد ان يفهمه مَن نخاطب . فاذا اطلعتَ على رسالة تيسر لك الحكم على ذوق كاتبها ومعارفه ودرجة تربيته ومكانته الاجتماعية . فأخذ ينطبق علينا مبدأ « الانشاء هو الشخص »

غير ان أهل الذوق وُجدوا في كل آن وزمان . وبينا كان المجموع يملأ صحيفة الرسالة بالمبالغة والإغراق كانت الخاصة تكتب كتابة الايجاز والبلاغة . كلٌ منا يعرف رسالة المتنبي الى صديق كان يعوده في مرضه فانقطع عنه بعد الشفاء فكتب اليه المتنبي يقول : « وصلتني ، وصلك الله ، معتلاً ، وقطعتني مبلاًّ . فان رأيتَ ان تحبب العلة اليَّ ولا تكدر الصحة عليَّ ، فعلتَ ان شاء الله »

وتحسب هذه الكلمة من بدائع الانشاء

لقد كان خاصة العرب أهل ذوق وكفاءة . فاحرِ بنا الاحتفاظ بجميل الموروث بينا نثقف أفكارنا وأقلامنا على نافع المكتسب (١٩١٥)

بين الدكتور شميل

والكاتب الامريكي

منذ شهرين تقريباً نشر الدكتور شبلي شميل رسالته الى العالم الالماني هكّل ، باللغة الفرنساوية ، واردت ان اعرف رأي الاجانب في الرسالة ومؤلفها ، فبعثتُ بها الى كاتب امريكاني زار مصر وأحب وادينا حباً جماً . وشفعت الرسالة بتفاصيل عن الدكتور وأطواره الغريبة التي تجعل له شخصيتين تكاد الواحدة منهما تناقض الاخرى . وأخبرتهُ ان الدكتور شميل غاضب على الامريكان لانهم لا يساعدون الحلفاء على دحر المانيا ، وانه يقول عنهم انهم أنانيون . فجاء الجواب وها أنا انشره ضاحكة ، لانه يهمني كثيراً ان يتخاصم الرجلان وهما على مسافة ستة آلاف ميل بين الواحد والآخر :

« قرأت باهتمام ما كتبتِهِ عن الدكتور شميل

ورسالته الى هكل ، وبدأ بعث بنسخة من هذه الرسالة الى المستر روزفلت

« يسرني وجود رجل كالدكتور شميل في الشرق لان هذا الرجل لازم لهدم الافكار القديمة التي يتقبلها الناس بلا بحث ولا جدال ، كأن ليس لافكارهم أهمية الا بقدمها أفكار يزيد في ثقلها صدأ الأجيال ويحاول حفظها التعصب الذي يحيط بها بقوة ودقة كأنه نسج العنكبوت . فأمثال الدكتور شميل يمزقون خيوط العنكبوت ويبيدون الصدأ وقاعدته دفعة واحدة . ولا بأس من هيجان المجموع لهذه الفوضى، فهياجه ضروري بل لا بد منه . أمثال الدكتور هم العنصر الهادم ما في الجمعيات والاديان من الغلو والافراط ، وهم فاتحو الطريق للذين سيقيمون أسسا جديدة ملائمة لمطالب العصر ومعارفه . والآخرون لا يتمكنون من العمل الا اذا عمل قبلهم الأولون

« تعجبين لماذا لا يشيد الدكتور شميل أثراً مكان الأثر الذي يهدمه . لكن لا عجب في ذلك . اذكري ديكارت

تعلمي ان الأمرين لا يُطلبان من رجل واحد . فالطبيعة وحدها مدمرة معمرة

« أما ما في آخلاق فيلسوفكم من التناقض فلا بد انه راجع الى الوراثة ، ثام بالظروف . لا بدَّ ان يكون الدكتور عنيف الطبع حاد المزاج ، ولهذا الخلق جماله . على اني أحب الخلق الهادئ الذي يترك الآخرين يتخاصمون حتى اذا ماسمع ما يقولونه من الحقائق والخرافات أعرض عن التافه من اقوالهم وتمسك بالصواب . فلا يتحول عنه ، بل كلما مرت الايام زاد به ثقة وحباً

« لا أدري لماذا يقول الدكتور شميل ان الامريكيين انانيون . هل عرف حضرته بعض ابناء وطني فحكم على أمة لاجل أفراد ، أم هي فكرة تناقلتها الالسن والاقلام فاثرت في فكره ؟

« ما هي البينات التي تقنعه بان الامريكان اكثر انانية من غيرهم ؟ أود ان أسأله اذا حلت على العالم الويلات فمن يسارع الى المساعدة قبلنا ، ومن يفتح قلبه وكيسه قبل أبناء

أمريكا ؟ كم من الملايين أرسلت الى الحلفاء في هذه الحرب الطاحنة ؟ غذاء بلجيكا وكساؤها يذهبان من وراء البحار وامريكا ترسل اليها ٣٦ مليوناً شهرياً . بعض السيدات من اجمل نساء امريكا تركن أزواجهن وأولادهن وذهبن لمعالجة الجرحى في ميدان القتال . الرجل الامريكي أحسن زوج في نظر الفتاة الانجليزية ، لا لأنه اناني ، بل لانه يحترم المرأة ويعترف بمواهبها العالية ويعاملها المعاملة التي تستحقها رقتها وسمو عواطفها . أعظم المستشفيات في باريز امريكية وينفق عليها من ثروات امريكية فردية . قد يرى الدكتور شميل في كل هذا انانية ، ولكنها انانية كريمة جميلة

«العالم الجديد جديد في كل شيء . في اختباره ، واعتقاده ، وعمله ، وأسلوبه ، وحريته . ولكن ليس فيه الانانية التي تظنون

« تضحكين من امريكا لانها تبعث باحتجاجاتها يمنة ويسرة . وانا أضحك . صحيح اني لا أريد ان اكون في موقف الدكتور ولسن في هذه الايام . ان هذا الرجل المسكين لا يدري على اي رجل يرقص بين عشرة ملايين

من الامريكان الالمان المحتجين في اذنه اليمنى ، وباقي ملايين الامة المحتجة في اذنه اليسرى ؛ هذا مع حالة المكسيك الحاضرة التي تكاد تشتعل اشتعالا

« امريكا رغماً عن شعبها الالماني الاصل تجاهر بميلها الى الحلفاء بلا خوف ولا تردد. لا أعني الحكومة بل الشعب. هناك أمر لا يحتمله امريكاني حرٌّ ربي على فكر الحرية وشرب لبنها كما شربه من قبله آباؤه — وهو مهاجمة بلجيكا وغزوتها . هذا لن نغفره لالمانيا قط

« قولي هذا للدكتور شميل اذا شئت . واسأليه ان لا يصدق كل ما يكتبه عنا كتاب فرنسا وانجلترا كما اني لا اصدق شيئاً مما يكتب عن الشرق والشرقيين . قولي له ذلك واهديه احترامي »

ها أنا قلت لك ذلك وأهديتك احترامه مشفوعاً باحترامي ، يا سيدي الدكتور . أفعل ذلك مترقبةً بعض صواعقك عربية كانت أم افرنجية ، فقد اوحشتنا كثيراً نارها المعذبة

(١٩١٥)

نقلت جريدة « الاخبار » فقرة من هذه الرسالة فأرسل أحد القراء الى الجريدة الاعتراض التالي :

الافكار القديمة

ومراسل الآنسة مي

مكاتب حضرة الآنسة مي الذي نشرت الاخبار شيئاً من كلامه نقلاً عن المحروسة . لا نعرف منه سوى انه « مسرور من وجود مثل الدكتور شميل في الشرق لان هذا الرجل لازم لهدم الافكار القديمة التي يتقبلها الناس بلا بحث ولا جدال الخ » فنهنىء حضرة الدكتور بهذه الحظوى — ولكننا نأخذ على حضرة الكاتب خوضه في مثل هذا الموضوع الخطير بكلام خيالي شعري هو من الابهام بحيث لا يفيد الا التضليل وامتهان النفس باشرف عاطفة فيها

تدل القرائن على ان حضرة الكاتب يريد « بالافكار القديمة » العقائد الدينية كالايمان باله كامل سرمدي الخ مثلاً مما تخضع له العقول على سموه وعجزها عن فهم كنهه . فمثل هذه الافكار على قدميتها — ثابت على أقوى الاساس والبراهين التي طالما احتك بها المتفلسفون وصقلتها الاجيال فلم تزدها الا ارهاقاً

وانا وايم الحق لنستغرب من الكاتب امتعاضه من تلك « الافكار » ورميه ذويها بالجهل والتعاسة وافتتانه بالآراء الحديثة وادعاءه لها أرجحية الثبوت والوضوح . ونحن نرى العلماء يتنازعون

فيها ولا يزالون ينقضون اليوم ما بنوا أمس على حين نراهم هم انفسهم يزدادون كل يوم تمسكاً بتلك الافكار التي يدعوها حضرة الكاتب قديمة . ويجاهرون مفاخرين بتمسكهم بها كنيوتون واراجو وباستور وامبير وغيرهم كثيرين ممن يحسبون أئمة في العلوم

وانا لنندهش من ان مراسل الانسة مي يحرم نفسه الان لذة التمتع بمشاهدة ما تتجلى به الافكار الحديثة من مظاهر الرقي وتهذيب الطباع وتلطيف الهمجية القديمة باستعمال الغازات السامة وطرق القرصنة وأساليب صب البلاء على الابرياء والضعفاء فضلاً عما أفادت الالمان — وهم أخص مروجيها ودعاتها — من القدرة التي سمت بهم الى قتل الاسرى والفتك بالاحداث والشيوخ والنساء

فأحر الكاتب الغيور ان يذهب الى ميادين القتال هناك ويساعد الالمان في هدم معاهد تلك الافكار القديمة ومعاقل تلك المعتقدات الدينية التي اثقلها صدى الاجيال كريمس وشقيقاتها . ولا يخفى ان المجال هناك رحب لغيرته فهذه « الافكار القديمة » تتجلى الان بأبهى مظاهرها في فرنسا في الخنادق والمعابد والمعاهد والمعسكرات حيث تقام الشعائر الدينيـة ويجهر الجميع بالصلاة . ولم يفت أصدقاء الكاتب في مصر الوقوف على شيء من مظاهر هذه الافكار في وفاة ومشهد الجندي لروى ومن كلام الكولونل موكور الذي ابنه بألطف كلام وسكب على جراح ذويه بلسم التعزية بذكر وفاته المسيحية مزوداً الاسرار المقدسة

ويحسن في هذا الصدد ان نذكر ما نقل عن العلاّمة الافرنسي

الشهير اميل اماجات الذي خسرته العلوم ونعته فرنسا الى العالم حديثاً وهو أحد أعضاء الجمعية العلمية في باريس والجمعية الملكية في لندن له المباحث الخطيرة والاكتشافات النافعة في كثير من فروع العلوم الطبيعية . فهذا الفقيد لما اشتدت عليه وطأة المرض استدعى الكاهن وقال له : « طلبتك لتؤهلني للحضور امام الله . اموت مؤمناً بكل ما تعتقد به الكنيسة الكاثوليكية . . . قد كان لي ديني راية يعلم الله اني ما دنستها بما يشين لاجل مجد أو مقام »

افلا يخجل حضرة الكاتب من امتهانه الافكار القديمة والعقائد الدينية ورميه بالجهل الناس الذين يقبلونها بلا بحث ولا جدال . وهو يرى امثال اميل اماجات متمسكين بها منتمين بكل افتخار الى الكنيسة التي تعلمها ؟ « ب . ر »

الى حضرة ب . ر .

اشكر لحضرة معترض جريدة « الاخبار » اهتمامه بما نقلتُ عن الكاتب الاميركي . وما كنت لأزعجه بجوابي هذا لولا اني شعرت في رده بشيء من سوء التفاهم بيننا . فاما ان تكون « الاخبار » نسيت سهواً نقل الجملة كما هي فاستأذنها بالاشارة الى ذلك . واما ان اكون اسأت التعريب — وهذا هو الاصح — فوجب عليَّ الاصلاح قدر المستطاع

لست بمناقشة ، لاني يوم عرَّبتُ رسالة الكاتب الاجنبي لم اكن ناشرة الا رأيه دون رأيي . ولا أنا بمعترضة على قول حضرة ب . ر . ان الكاتب اخطأ اذ خاض في الموضوع « بكلام خيالي شعري » . اولاً لان الرجل ليس شاعراً . ثانياً لاني اضطر آنئذٍ ان أذكّر حضرة ب . ر . ان التوراة والانجيل الشريفين مكتوبان باسلوب

شعري خيالي . ففي التوراة يفيض الشعر فيضاناً جميلاً من مزامير داؤد الى نشيد سليمان ، الى سفر أيوب ، الى نواح ارميا . واما الانجيل فمملوء بالرموز والاشارات كما انه مملوء بالتعاليم العالية المؤدية الى الكمال الاسمى . والسيد المسيح نفسه قال انه يتكلم بالرموز ويضرب الأمثال

على اني استأذن حضرته بالفاته الى قول الكاتب الاجنبي ان « امثاله (الدكتور شميل) يهدمون ما في الاديان والجمعيات من الغلو والافراط » . هذا صريح لا يحتمل تدليلاً . فهل « الغلو والافراط » يعنيان الايمان باله أزليٍّ سرمدي ؟ كلا . ان هذه الفكرة العظيمة ام العقائد الدينية وغير الدينية جميعاً . انها ملازمة لفكرة الخليقة ملازمة لا تقبل انفصالاً . وسواء دعيت تلك العناية المثلى « هو وهي » كما يدعوها الاسرائيليون القدماء ، ام الله ، ام الطبيعة ، فهي هي ، وما كان البشر الا معددين لها الاسماء والالقاب . « واصدقاء » الكاتب الاجنبي يؤكدون لحضرة ب . ر . ان الرجل مؤمن بالله . فلماذا لا يكون

« الغلو والافراط » في التجاء امرأة ضاع منديلها مثلاً ، الى القديس انطونيوس تستحلفه بأمه وابيه ان ينزع منديلها من ايدي الشياطين ويضعه في جيبها مباشرة ، وذلك بمقابل بخور بكذا قروش تهديه اليه في الغد . ولماذا لا يكون « الغلو والافراط » في التجاء السيدات المسلمات الى « الزار » والمشعوذين . ولماذا لا يكون « الغلو والافراط » في حرق المرأة الحية قرب زوجها الميت عند الهنود ؟

اظن ان مثل هذه الاعتقادات الصبيانية والعادات الفظيعة تستحق نعت « الغلو والافراط »

بعد خطة الدفاع يتخذ حضرة ب . ر . خطة الهجوم فينتقل دفعة واحدة من الدين الى الحرب . واعترف بان هذا الهجوم الفجائي يدهشني بعض الدهشة ، وهو يعلم ان لا دخل للدين في حروبنا اليوم . نعم انهم يفتتحون الحرب باسم الله ، وينادونه الى الاخذ بيدهم ، ويتملقونه — وهو الرفيع عن كل تملُّق — قائلين : أنت الهنا وأنت معنا . حتى اذا ما أفنوا

حياة سمح بان تكون ، وهدموا دياراً سمح بان تُشاد ، ومزقوا أجساداً وسحقوا قاوباً عادوا الى كنائسهم ومعابدهم ، وجثوا امام الاله العظيم اله الرحمة والحب والاشفاق ، وانشدوا : « اياك اللهم نعظم » ! ان الاديان لتبرأ من فظائع الحروب ولا تجوّز الا الدفاع عن الوطن اذا هاجمه الاعداء . ولكن جميع النفوس لا تفهم الاديان كما هي ، بل كل منا يفهم دينه حسب درجة عقله وميول قلبه . ولا يقتصر البشر على الايمان بالعقائد الدينية الاساسية بل يتعصبون لاعتقادات اخرى اضافية لم تكن الا اختراع التعصب والجهل . وكثيراً ما يستفيد رؤساء الشعب والحكومات من هذا التعصب فيشهرون الحروب ، ويقودون الشعب المسكين الى حيث لا أثر للدين ، ولا منفعة لغير السياسة

فان استعمل الالمان وسواهم العلم و بذلوا كل مالديهم من معرفة وحيلة في سبيل قهر اعدائهم ، فهل هذا يعيب العلم ؟ الطب عائد بالخير على الانسانية ، فهل اذا دس طبيب لعليله السم لغرض من الاغراض فسدت منفعة

الطب ووجب علينـا ان نحسبه من حيث طبيعته شراً ؟ هذا العلم الذي هو آلة شر وفناء في يد المانيا وغيرها الآن كان وما زال آلة خير وحياة في يد ألوف من الافراد وعشرات من الشعوب . لذلك لا يتحتم ان يكون المؤمن جاهلاً . فالدين شيء والعلم شيء آخر . الدين مهذب شخصيتنا المعنوية والعلم ضرورة من ضروريات حياتنا الاجتماعية . هـذا للزمان وذاك للابدية ، وليس لاحدهما ان يلاشي الآخر

يختم حضرة ب . ر . مقاله كمن يتساءل ألا يخجل الـكاتب لانه لا يعتقد اعتقاد اميـل اماجات ؟ لست ادري ، يا سيدي ، لاني لم اسأله بعد . ولـكني اعتقد ان الدين علاقة سرية بين الخالق والمخلوق ، اعتقـد ان كل امرىء يلاقي نتيجة افعاله ولا يتحملها عنه احد ، اعتقد ان الله منح البشر حريتهم — اسمح لي ان أذكر الحرية بلهجة غير لاهوتية — فعلى كلّ ان يرى وجهة الخير امامه ، ويعبد ربه ويخدمه كيفما شاءَ . ما دام الله سامحاً بذلك ، لماذا لا يسمح به الناس ؟

اما الدكتور شميل الذي تفضلت وهنأته « بهذه الحظوى » فلست اعرف كيف تقبلها واذا كان اعجاب رجل اجنبي او شرقي يهمه كثيراً . ولكني اعرف ان اسمه من الاسماء التي سيفتخر بها الشرقيون دواماً سواء أكانوا مؤمنين أو ملحدين . لم يكتب ضد الدين أحدٌ اكثر من فولتر ورغم ذلك فمقامه الادبي محفوظ حتى لدى المتديّنين ، ويفاخر ابناء فرنسا بان ينعتوا لغتهم باسمه فيقولون عنها « لغة فولتر »

(١٩١٥)

سلام الله يا مطرُ عليك

قلبتُ الشطر وغيَّرتُ منهُ المعنى لأُنصفك ، يا مطر الجوّ ، وأثأر لك من الشاعر العربيّ . وسواء أعناك في شعره أم عنى رسولاً اسمه « مطر » ، أم جعل الكلمة الواحدة في الشطرين تعنيك مرةً وتعني الرسول أخرى — فأنتَ ، يا مطر الغيوم ، مظلوم . وما أظلم الشعراء يوم لا يرحمون !

وما ذنبكَ انت المنفعل وان خلناك فاعلاً — ما ذنبكَ اذا امتصتك الشمس من البحر بخاراً ، وعقدتك في الجو سحاباً ، ثم تفجَّرت السحب وتدفقت سيولاً تروي السنابل والاشجار ، وتذبل الأنبتة والأزهار حيناً في انتظار ربيع يحبوها من جديد بنضرة الشباب وسحر الحياة ؟

وما ذنبكَ اذا أبطأ الرسول مطر في رسالته — فلعلَّ له في طريقه ليلى تحدثهُ ؟ وما ذنبك ان لم يعُد مطر الرسول الى الشاعر بجوابٍ مرضيٍّ من ليلاه ؟ وهب انك هطلتَ قبيل

اجتماعهما المنتظر فكنتَ بينهما حائلاً – فما ذنبك ؟

سخط الشاعر وسبّك بالاوزان والاسجاع على نحو ما يكون سباب الشعراء ؛ ولكنه اذا كان شاعراً صميما فما لبث ان هدأ سخطهُ وفكر في شعوبٍ جائعةٍ تنتظر منك ارواء غليلها وضمانة قوتها

ولكن لعلّ الشاعر كان مصرياً فما استطاع أن يرى فيك ما تراهُ شعوبٌ ليس في ديارها نيل كريم يفيض بدموع الآلهة فيغنيها عن منافعك وأضرارك ؟

يحق لبعض المصريين ، من جانبٍ آخر ، ان يقروا الشاعر القديم في قوله « وليس عليك يا مطر السلامُ » ، يحق لهم ذلك اذا ما رأوا الاحياء غير الاوربية في هذه المدنية . والأحياء الاوربية وغير الاوربية من الامور التي تسوسها مصلحة التنظيم . ومصلحة التنظيم – كما تعلم أو كما لا تعلم ، ايها المطر – دائرة من دوائر الحكومة . فاذا ذكرناها بغير الثناء والتعظيم والتبجيل كان نصيبنا منها نصيبك من شاعر ليلى – على الاقل !

(١٩١٦)

بين الادب والصحافة

تساءل مستر برسي هوايت في احدى محاضراته الاخيرة بالجامعة المصرية : هل الادب والصحافة واحد ؟ وما لبث ان أجاب نفسه قائلا : « كلاَّ ليسا واحداً . قد تلامس الصحافة الراقية ، في بعض موضوعاتها ، المعاني الادبية العالية فتوسم بوسمها وتؤثر تأثيرها . لكن الصحافة، بوجه الاجمال ، تختلف عن الادب من حيث الغرض والمرمى والتأثير »

بينما كان الاستاذ يبسط رأيه كنتُ أضاحك نفسي قائلة : قد يكون هذا رأيكم ، أيها الغربيون ، لكن الامر عندنا على غير ما تذكرون . عندنا إذا كتب المرء مقالات قليلة في الزراعة مثلا ، حاز دفعة واحدة جميع الالقاب الكتابية المدوَّنة في القاموس فاصبح كاتباً مجيداً ، أديباً اريباً ، مفكراً مبتكراً ، شاعراً فذاً ، خطيباً مفوّهاً ، سياسياً

محنكاً ، عالماً علامة وبحراً فهّامة . واذا أردت معرفة ألقابه الاخرى فعليك « بنجعة الرائد » لليازجي صفحة ٢ الباب السادس من الجزء الثاني

الادب فن التعبير عن العواطف والميول والتأثيرات نثراً ونظماً. فالشعر فرع من الادب . والشرط الجوهري للكاتب الادبي هو ان يكون ذا احساس قوي يتأثر بجميع الحوادث ، فاذا نقص هذا الشرط تلاشى الكاتب الادبي

وكيف يؤثّر من لا يكون متأثراً : ألا انّ الذكاء يتعب ، والعلم يعذب ، والحرية الفكرية تقلق النفس. ولكن عرفت كيف تضرب على أبواب القلوب سمعت الجواب دوماً . تجاوبك الدموع . دموع التعزية في الغالب ، ودموع الألم أبداً

أما الصحافة ففي نشر الاخبار السياسية والاجتماعية والعلمية والادبية . فهي إذن مختلفة عن الادب كل الاختلاف . اذا احتاج الاديب الى شعور قوي فلا حاجة للصحافي الى ذلك ، وما عليه سوى نقل الانباء التلغرافية

ونشر الحوادث المحلية . فاذا فعل اجاد وكان عند ربه وعند الناس مرضياً

على ان خدمات الصحافة جليلات ولا غنى لامة متمدنة عنها . ولصحافتنا العربية مزية خاصة في هـذا العصر بكونها لسان حال الادباء والعلماء والمفكرين والمتشرعين . كتب العلم والادب قليلة عنـدنا لان علماءنا وأدباءنا قليلون . وقد ندر بينهم من استطاع تأليف كتاب والاجادة التي هي شرط الافادة . أما معظم الكتب المتداولة بين أيدينا فمنقول عن اللغات الاجنبية واذا كان لنا منها فائدة فهي ، على كل حال ، لم تكتب لنا ولم تلاحظ احوالنا وورائثنا وأخلاقنا في تأليفها . ولا يستطيع الاتيان بذلك الا كاتب منّا . لان الـكاتب الاجنبي لا يفهم طبيعتنا الشرقية تماماً مهما عاش بيننا وهو ذو طبيعة متباينة ، فلا بد من المقابلة بينه وبيننا في كل امر . وهو لا ينظر الينا الا بعين الغرب للشرق أي بعين الاستفهـام الدائم ، بعين الاستغراب والاستحسان اللذين يتجاذبانه امام كل حركة من حركاتنا

ويجيد كتّابنا في بعض المقالات المنشورة في الصحف السيارة . يجيدون في تشخيص الداء وفي الارشاد الى الدواء . فنرى أحياناً بين التلغرافات والحوادث المحلية سطوراً أدبية ملؤها الشعور الصادق والاختبار والمعرفة . وهذا فضل يضيفه الصحافيون الى افضالهم الكثيرة . فان لم يكن الشعور ضرورياً للقيام بواجباتهم ، فهم يعرفون كيف يستعملونه ومتى يظهرونه

أصبح الصحافيون زمرةً قويةً تخشاها الارض ومن عليها . فهم ينتقدون القوانين ، ويحاجّون الحكومات ، ويسنون أوامرهم للبشر ، ويبسطون آراءهم لأولي الحل والعقد حتى اذا شعروا بأن الفكرة التي يبدونها بعيدة عن ذهن القارىء عمدوا إلى اسماء التحبب فدعوهُ تارة « القارىء اللبيب » وطوراً « القارىء الكريم » وحيناً « القارىء العزيز » الى غير ذلك من النعوت الطيبة التي ترضي الجميع . فيقتنع القارىء بانه لبيب وكريم وعزيز ، فعلى كل لبيب كريم عزيز ان يفكر ان ما جاء في المقال هو الحقيقة بعينها

اكتب هـذا وأنا أعضُّ على سبابتي ضاحكة . لا تغضبوا يا سادتي الصحافيُّون. كلنا معترف بالخير المتدفق من اقلامكم على من يقرأ وعلى من لا يقرأ جميعاً ؟ واشهد باحترام ان وجودكم بيننا عنوان ارتقائنا ، اليس كذلك ؟ غير اني اريد ان انصفكم فأقول : لئن كان كل منكم القدرة المجسمة ، فان هناك شخصاً اقدر منكم لو اتحدتم جميعاً . لا تظنوا ان الله هو من اعني ، بل هو بطل قلم الرقابة . . . هو الرقيب

(١٩١٦)

موعظة شهر الورود

دنا المساء فهزّني طربُ الربيع ورغبتُ في الخروج والتجوال لاشارك الطبيعة في افراحها. كأني حسبتُ جدران البيت تقطع الصلة بيني وبينها، وتشعرني بأني محرومة من مشاركة الموجودات الهاتفات باريج ايّار بين الغصون وبزينة الارض العروس

خرجتُ وليس لي وجهة معينة اطلبُ بداهةً احياء قلما اخترقتُها. فسرتُ في شارع قصير على مقربة من شارعنا كأن نفسي المتيقظة لبت داعي الاخضرين المحيطين بهاتيك المنازل: أخضر يبسطُ على أرض الحديقة طنفسة مخملية، وأخضر يتعالى ظليلاً فيعكس طيف افنانهِ على وجه الجدران الشاهقات

سرتُ متمهّلةً انتقل من رصيفٍ الى رصيف، والشمس آخذة في التحدّر وقد انكسرت حدّتها، ولطف نورها،

حتى بدت الاشعةُ حزينة بما مازجها من معاني الفراق . وما كان اندر المركبات والسيارات في ذلك المنعرج ، والمارُّون يتبادلون نظرة كأنهم لقلّتهم يقولون « أرأيت ؟ لا أحد إلاّ نا ! »

أتيت على آخر الشارع فنفذتُ الى شارع رحبٍ طويل هو شارع ماريت باشا المؤدي الى دار الآثار المصرية . خطوتُ متردّدة بين العودة من حيث أتيتُ ومتابعة المسير الى الامام. واذا بناقوس يدقّ على مقربة مني ولرنينه ازاء الغروب دويٌّ متوسل حنّان . فالتفتُّ الى جهته فوجدتني امام كنيسة صغيرة رأيتها مراراً ولم ادخلها مرة

وقفت اتأمل واجهة الكنيسة وادير النظر في الحديقة التي تتقدّمها وكانت تجتازها بعض السيدات . فاما توارين وراء باب الكنيسة تبادر اليّ انه يحتفل بصلاة الشهر المريمي في هذه الساعة من كل يوم على طول الشهر ، لان ايار (مايو) مكرَّس للعذراء . ولم يعد ينقصني الا ان أرى فتاة تسير بخطوات عصفور في ثوب أزرق كزرقة الاحلام

وتتوارى هي أيضاً وراء باب الكنيسة ، لأجد مني شوقاً الى مشهد الهياكل وتوقاً الى رائحة البخور . أضحكوا ما شئتم، انتم الزاعمون ان الثوب المليح دعاني ، وان زيه البسيط تخرينه الدقيق كان له مع المرأة مني احاديث

أما الكنيسة فكانت مملوءة بالمصلين ولم يخلُ في مقاعدها إلاّ مكان واحد جثوتُ عندهُ قرب الكاهن الراكع امام المذبح يتلو المسبحة باللاتينية فيردُّ عليهِ الجمهور بلهجة الخاشع المتهيّب

لا أعرف شيئًا اجمل وأسمى من الصلاة في أي دين من الاديان ، لانها رفع النفس الى أعلى درجات الارتقاء ومحاولة الدنو من روح الحياة الكبرى . هي مناجاة العابد المعبود ، هي شكر المخلوق للخالق واستعطافه لاستنزال عطاياهُ . وما اعذب هذا الاعتقاد ان في السماء، هناك وراء جمع القوى والعجائب الكونية ، الهاً قديراً لا يُقضى دونه أمر ، لديه النعم يفيضها على الحاجة البشرية ، وعزة يتلاشى حيالها ضعف الانسان ، وجودٌ يعمُّ البرايا فتموج وتتنوع

وتنبض بالحياة والقوة والتحوّل

الا أني لا أستحسن الصلاة الآلية المستطردة على وتيرة واحدة دون ان يشترك فيها العقل والقلب ، ـ الصلاة المتعاقبة الفاظها بين الشفاه والاصابع تعدّ منها أرقاماً معينة ـ لأنها أبعث الى التنويم المغناطيسي منها الى الايقاظ الروحي . قد يكون هذا التأثير من تفنن الشيطان في التجربة والخداع . فالله الله ! لقد وسوس في صدري حتى شتت أفكاري وحملني على احصاء الحاضرين . وكانت النتيجة اني جزمت بان النساء اسبق الى دخول السماء نسبة الى عددهنّ في الكنيسة ، اذ لم يكن بين مائتي امرأة الا رجلان وخمسة ارباع . اما الرجلان فرجلان ، واما الخمسة الارباع فصبيان صغار خمسة جاءوا مع امهاتهم . وكم كنتُ ظالمة في الاحصاء والحكم ! ذلك اني عند الخروج وجدت جمهور الرجال في مدخل الكنيسة ، يقفون هناك مراعاة للسيدات وتكرّماً منهم لهنّ بالمقاعد

وظلّ الخناس الوسواس يجرّبني فحسّن لي تفحص

المعبد فتفحصتُ جدرانه وما قام عليها من صور وتماثيل ، وهندستهُ وما ميزها من نقوش ورموز ، وهيا كلهُ وما تناسق عليها من صلبان وطاقات ازهار - تلك الازهار ذات الانحناء السريّ ، تتخللها شموع كأن لهيبها تذكارات لاذعة في شفق الغيبوبة والنسيان

لكلّ شيء في العالم نهاية . صمتت الاصوات فمشى الكاهن الى الدرابزون امام المذبح الكبير وبدأ موعظته الايطالية . وكان يقول أشياء عادية بصوت المثبت ، واشارته مرتبكة كاشارات التلاميذ في حفلة توزيع الجوائز . ولكن لم يلبث ان ارتفع صوتهُ ، وركزت هيئتهُ ، واتسعت اشارته ، ولمعت عيناهُ وهو يقول :

« الى مريم ربة هـذا الشهر الجميل يجب ان تلتجيء النساء جميعاً . فالامهات يتعلمن منها التجمل بالصفات التي أحاطت بها ابنها يسوع : وهي الحنان والحصافة والمحبة الصادقة التي لا زهو فيها ولا تهوُّر . لقد كانت ، وما زالت ، وستبقى ابداً اسمى مثال للامومة القدسية ، تسير الامهات

وراءها مستوحيات أساليب التربية والتهذيب

« اليها يلتجىء اليتامى الذين لا امّ لهم فيجدون في حضنها الراحة والعطف والمساعدة . اليها تلتجىء العذارى لانها أبهى مظهر للطهر والحشمة والوداعة

« اسمعن يا اخواتي يا نساء القاهرة ! اليكنّ أوجه هذه الكلمات فاقبلنها لانها خلاصة اعتقادي . تعلّمن الحشمة من مريم انتنّ بنات اليوم الناسيات . ما وقار المرأة واحترام الناس لها الا نتيجة حشمتها وعفتها . قد تكنَّ عفيفات طاهرات في قلوبكنَّ ولكن كيف يصدقكنَّ الرأي ويحسن الظن بكنَّ وانتنَّ تسرن في الشوارع بهذه الازياء الحديثة التي تعرّي منكنَّ العنق والنحر والذراعين ، هذه الازياء الشريرة باقمشتها الشفافة ، الشريرة بقصرها وضيقها ، التي تعدم لابستها كل هيبة وجلال — ؟

«أللحبِّ تتزينَّ ؟ أللحبِّ تتهن في هذا التهتك ؟ ألا فاعلمن إذاً ان حب الرجل لا يكتسب بالتهتك بل بالتكتم . الرجل محارب من طبعهِ يهوى الفتوحات ويستميت

في الاخضاع بينما هو يعرض عن كل ما لا يكلفه ألماً وكدّاً

« ام انتنَّ تتزينّ للجمال ؟ ولكن هل الجمال في الزينة والاناقة وملاحة الوجه وتناسب الاعضاء ؟ كلاّ ! كم من امرأة تُحسب آية تناسب وملاحة وهي مع ذلك غير جميلة ، إذا سرّ امرؤ بمشاهدتها مرةً او مراتٍ فهو لا يتمنى مجالستها ويملّ كلامها وسخافتها بعد ان يعرفها قليلاً ، إذ يرى ان أحسن ما فيها هو هـذا الشيء الخارجي الذي لا يكفي لامتلاك القلوب واكتساب الارواح

« ألا فاعلمن ان النساء اللاتي كنَّ ذوات أثر في أعاظم الرجال وذوات سلطة وشوكةٍ حزنَ جمالاً أعظم من هذا الجمال الخسيس وأبقى . لقـد كان لهنّ جمال النفس الذي تزيدهُ الايام رونقاً بينما هي تحكّ القشرة هنا وهناك وتوسعها كل ساعة ذبولاً وإتلافاً . كان لهنَّ جمال العقل وجمال القلب ، وجمال حسن التصرّف ، وجمال اللطف الصحيح ، وجمال المحبة الطاهرة العميقة المستخفة بالمظاهر التي لا يغرّها جمال الشباب وجمال الاناقة وجمال الازياء

« أتعلمن ما هو الشباب والجمال؟ هما حديقة تملأها الازهار النضرة والعطور المنعشة، أمامها يقف المارُّون معجبين. وما هو الا يوم وليلة فتمرُّ العاصفة صارعةً أشجارها، مبددةً أزهارها، مبيدةً عطورها، وتغادرها خالية الا من أكوام التراب والاغصان المكسرة. هذا ما تسمونه جمال الشباب أي جمال القشور. أما الجمال الآخر فهو جمال الجوهر. الآلام تطهره، والمصائب تجلوه، والعواطف تفعمه قوةً ونبلاً. هو الجمال الذي يبقى نامياً مدى الحياة. هو مسعد العائلة، هو مساعد الزوج، هو مهذب الاطفال، هو السلام والخير والبركة ولتحفظه المرأة ... اسمعن أيتها السيدات . . . لتحفظ المرأة ذلك الجمال. عليها ان تكون وردةً تحيط بها الاشواك . . . . »

انتهت الوعظة. فعزف الارغن الشجيّ وابتدأ الزياح فاشترك الجميع في الترتيل وتصاعدت الشعائر نحو الله ملحنةً انغاماً ومحترقة امام هيكله بخوراً

وعند خروجي من الكنيسة كان الظلام يغمر المدينة

ومضيئو المصابيح يجرون في الشارع حاملين المشاعل . فوقف أحدهم يتفرج على السيدات وهو يفترُّ عن أسنانهِ البيضاء ، ويثني على كل مارة الثناء المعتاد قائلاً بلهجتهِ المصرية النغشة « انتَ يا واد يا حلو ! انت يا للي زي الباشا ! انت يا واد يا حلاوة »

هذه هي موعظة شهر الورود : على المرأة ان تكون وردة تحيط بها الاشواك . وما « أشواك » الوردة النسائية غير التكتم والحشمة والطهارة كما قال ذلك القس . فان عجبتم اليوم لهذا الكمّ الطويل الذي يتعثر قلمي بأذياله فاعلموا ان سببه موعظة شهر الورود . وان أعرضتُ عن ذلك الثوب الشفاف الساحر واستبدلته بهذا الشبيه بثوب ايدنا الواعظ لكثافته فما سببهُ الا موعظة شهر الورود . وان غادرتكم الآن ، فما ذلك الا لاني أريد أسمع موعظة شهر الورود مرة اخرى : — على المرأة ان تكون وردة تحيط بها الاشواك .

الحركة بركة

شكا الناس هذا العام وما فيه من كثرة الجلبة في ميادين القتال وقلة الحركة في ميادين الاعمال . قال بعضهم ان مصر فارغة في هذه الشهور فراغ جيب البخيل . وقال آخرون ان جيب البخيل لا تفرغ ان كانت يده لا تمتلىء ؛ فسعى بالصلح جماعة أرضوا الفريقين بقولهم « بل قد تكون جيب البخيل ويدهُ ملآ نين ولكن عينه تبقى فارغة »

هؤلاء الناس سفسطائيون لا يعرفون شيئاً . أيها القارىء ، لا بد ان اسمّيك اليوم لبيباً ، اذ لديَّ من الأقوال ما أودُّ ان تقبله بلا اعتراض ، وأن تضحك له لا منهُ . لهذا لا بد ان تكون لبيباً . فاذا كان دولاب الاشغال (كما يقول الاختصاصيون) قد أكله الصدأ ، وما كثر في هذه الايام من العمّال الا العاطلون فلا تظن الحالة موجبة لليأس . صحيح ان البورصة تحزن السماسرة بعض الحزن لأنها عنيدةٌ تأبى

الطلوع ، لكني اعترفُ لك سراً بأنها مصيبة . فليست الأيام أيام طلوع وكلّ مرتفع مُعرّض للمقذوفات . إنما الزمان زمان خنادق . حفرت البورصة لنفسها خندقاً ملائماً للأحوال ونزلت فيه صامتة

غير اني اكرر ان الحالة لا توجب اليأس لان اللصوص قوم أذكياء ، اذا هدأت الحركات غلت حركاتهم وتنوعت . يتهادون بين المنازل والدكاكين تهادي ربات الجمال وذوات الحجال . يسيرون من باب الى بابٍ ، ومن مستودعات الجواهر الى مستودعات الأموال ، بخفة وهدوءٍ لئلاّ يقلقوا راحة النائمين. الأدب حسن في كل حين ، واللصوص جماعة « جنتلمن »

على اني أعجب للمسروقين لماذا يغضبهم انهم لا ينتبهون لمرور الساعة الرهيبة ؛ أهذا جزاء المعروف ، يا سادتي ؟ أما البوليس فلا اعتراض على وقفته : يقفُ في النهار بكرامةٍ وعلى مقربةٍ منه تتخاصم الناس وتتصادم المركبات ، وهو ولله الحمد واقفٌ بالسلامة ، منصوبٌ قوامه الأ من طرفيه

كالألف المتقنة الصنع ـ وهذا يزيده شبهاً بإله الحدود القديم عند الرومان

استغفر الله ! لست أعني انه يظلّ واقفاً كالتمثال ! كلا ثم كلا ! انه يمشي أحياناً ، ويرفع يده مسلماً على بعض المارين في المركبات ، وطرف حديث مع الاخوان لا يزعجه بل بالعكس . وهو مع ذلك متممٌ أمور وظيفته . فاذا رأى قبيل المساء حوذياً لم ينوّر شمعتيّ مركبته صاح إلهُ الحدود الجديد باسطاً ذراعيه الى الامام وقال « نوّريا أوسطى ! » . انهُ ابطل شجاع لا يحابي أحداً ، ولا يخشى هو لاً إذا ما أمره الواجب! علينا أن نعترف من جهة أخرى بأن الحوذي يطيع مرة في المئة ويعصى تسعاً وتسعين مرة ، مكتفياً بأن يجيب على أمر البوليس « حاضر يا سيدي ! » . يقول المثل « لاقني ولا تعشني » . وكذا يعمل الحوذي لانَّ ثقته في حلم البوليس لا حدَّ لها . مهما كان المرء بوليساً فانهُ يظلُّ انساناً رحيماً

هذه حالة البوليس في النهار ، أما عن الليل فلا تسلني ! قيل لي في قديم الزمان وسالف العصر والأوان ان بوليس

الليل يدعى خفيراً . وهو كذلك . انه ما زال بوليساً معتبراً ما دام قائماً مقام البوليس . ولا أعرف عن هذا البطل الآخر سوى حادثة صغيرة جرت في شارعنا منذ اسبوعين تقريباً : دخل لص بيتاً فأفاق أهل البيت ، وانتبه الجيران ، وقبض هؤلاء واولئك على اللص وشريكه ، ثم تساءلوا اين البوليس او القائم مقامه . فبعد ان بحثوا عن رجل الساعة وجدوه نائماً كطفل بريء . . . فأيقظوه ! ويلٌ لقساة القلوب انهم لا يشفقون !

من ألذّ أخبار اليوم حوادث ثلاث : سرقتان لمبالغ ٥٠ جنيهاً و ١١٥ جنيهاً من بعض المخازن ، وسرقة حلى وجواهر من منزل سيدة وطنية بقيمة خمسين الفاً من الفرنكات

بارك الله فيكم أيها اللصوص ! ان ضاعت ايامكم فان لياليكم لا تضيع ! تذكرون قول الامريكان « الوقت من ذهب » ، وقول السويسريين « السكوت من ذهب » وتستخدمون الوقت والسكوت معاً فينقلب الذهبان بين

ايديكم لآلىء وجواهر ! بارك الله فيكم جميعاً ! أليس كذلك أيها القارىء اللبيب ؟

والبوليس ؟ لا توقظوه ! انه نائم بالسلامة كطفل برىء . . .

(١٩١٦)

دنا عيد الميلاد . . .

دنا عيد الميلاد وجاءت معه جميع الذكريات والتصورات والمعاني الخاصة به . غداً يلقي الواعظون من على المنابر كلمات الرفق والاحسان والغفران ، وينشد المنشدون « المجد لله في العلى وعلى الارض السلام » فيسمع الناس الاناشيد والمواعظ ولا يحاولون ادراك كنهها ، وان ادركوا فلا يعتقدون بوجوب تطبيقها على أعمالهم ؛ لانها كجميع النصائح تقلّ قيمتها بالتكرار ويستخف بها كلما تبرع بها المتبرّعون

المجد لله ليس في العلى الذي لا نعلم ما هو فحسب ، بل المجد له في كل مكان وكل زمان . أما السلام فليس على الارض في أيامنا ، ولا ينتظر ان يحلّ عليها قبل ان يتغير نظام الكون وهو التصارع والتقاتل الذي لا يفتر ولا يضعف منذ مئات الاعوام والدهور تتجاوب كلمات المحبة

والمساواة أما الاعمال فلا يظهر فيها غير تنازع البقاء وتنازع القوة، وتنازع الغلبة والظفر بين الافراد والجماعات في شؤون العمران والدين والطبيعة. ليس غير التنازع من سبب في أن تقيم الفنادق الكبرى شجرة عيد الميلاد ليدور حولها الراقصون الراغبون في نسيان همومهم وتسريح غمومهم. وهو هو باعث نظرات السرور في عيني طفلٍ يرقب لعيباتٍ ودمى وخيل وأسلحة ومركبات عمرت بها نوافذ المحال التجارية. وهو منبّه الذكرى في نفوسنا ومعيدنا الى أيام كنا نرى في هذه اللعيبات الكون بأسره. كما انه في الوقت ذاته العاطفة التي تحوّلنا عن هذه الاشياء الى ما هو خير منها. أو ليس هو ذلك التنازع في شكل مجاملة، صارت بالاستمرار اخلاصاً اجتماعياً، الذي يجعلني أقول: كل عام وأنتم ...

عام سعيد

كلمة يتبادلها الناس في هذه الايام ولا يضنّون بها الاّ على المتشح بأثواب الحداد . فاذا ما قابلوه جمدت البسمة على شفاههم وصافحوه صامتين كأنما هم يحاولون طلاء وجوههم بلونٍ معنويٍّ قاتم كلون أثوابه

ما اكثرها عادات تقيدنا في جميع الاحوال فتجعلنا من المهد الى اللحد عبيداً ! نتمرّدُ عليها ثم ننفذ أحكامها مرغمين. ويصح لكل أن يطرح على نفسه هذا السؤال « أتكون هذه الحياة «حياتي» حقيقة وانا فيها خاضع لعادات واصطلاحات اسخر بها في خلوتي ، ويمجُّها ذوقي ، وينبذها منطقي ، ثم أعود فأتمشى على نصوصها أمام البشر ؟ »

يبتلي امرؤٌ بفقد عزيز فيعين لهُ الاصطلاح من اثوابه اللون والقماش والتفصيل والطول والعرض والازرار فلا يتبرنط ، ولا يتزيا ، ولا ينتعل ، ولا يتحرك ، ولا يبكي الا

بموجب مشيئة بيئته المسجلة في لوائح الحداد الوهمية . كانما هو قاصر عن ايجاد حداد خاص يظهر فيه ـ أو لا يظهر ـ حزنه الصادق المنبثق من أعماق فؤاده

اذا خرج المحزون من بيته فلا زيارات ولا نُزَه ولا هو يلتقي بغير الحزاني امثاله . عليه أن يتحاشى كل مكان لا تخيم عليه رهبة الموت ؛ المعابد والمدافن كعبة غدواته وروحاته يتأممها وعلى وجهه علامات اليأس والمرارة

وأما في داخل منزله فلا استقبالات رسمية، ولا اجتماعات سرور ، ولا احاديث إيناس . الازهار تختفي حوله وخضرة النبات تذبل على شرفته ، وآلات الطرب تفقد فجأة موهبة النطق الموسيقي ؛ حتى البيانو أو الارغن لا يجوز لمسه الا للدرس الجدي أو لتوقيع ألحان مدرسية وكنسية — على شريطة أن يكون الموقّع وحده لا يحضر مجلسه هذا أحد . أما القرطاس فيمسي مخططاً طولا وعرضاً بخطوط سوداء يجفل القلب لمرآها

كانت هـذه الاصطلاحات بالأمس على غير ما هي اليوم ، وقد لا يبقى منها شيء بعد مرور أعوام . ولكن

الناس يتبعونها الآن صاغرين لأن العادة أقوى الاقوياء وأظلم المستبدين

ان المحزون أحقّ الناس بالتعزية والسلوى؛ لسمعهِ يجبُ أن تمس الموسيقى بأعذب الألحان، وعليه ان يكثر من التنزه لا لينسى حزنه فالحزن مهذب لا مثيل لهُ في نفسٍ تحسنُ استرشادهُ، وانما ليذكر ان في الحياة أموراً اخرى غير الحزن والقنوط

ألا رُبَّ قائل يقول ان المحزون من طبعه لا يميل الى غير الألوان القاتمة والمظاهر الكئيبة. إذاً دعوهُ وشأنه! دعوه يلبس ما يشاء ويفعل ما يختار! دعوا النفس تحرّك جناحيها وتقول كلمتها! فللنفس معرفة باللائق والمناسب تفوق بنود اللائحة الاتفاقية حصافةً وحكمةً

بل أرى ان أخبار الافراح التي يطنطن بها الناس كالنواقيس، ومظاهر الحداد التي ينشرونها كالأعلام، انما هي بقايا همجية قديمة من نوع تلك العادة التي تقضي بحرق المرأة

الهندية حيةً قرب جثة زوجها . واني لعلى يقينٍ من أنه سيجيء يومٌ فيه يصير الناس أتم أدبًا من ان يقلقوا الآفاق بطبول مواكب الاعراس والجنازات ، وأسلم ذوقًا من أن يحدّثوا الأرض وساكنيها انهُ جرى لأحدهم ما يجري لعباد الله أجمعين من ولادةٍ وزواجٍ ووفاة

وتمهيداً لذلك اليوم الآتي أحيّي الآن كلَّ متشح بالسواد ؛ أما السعداء فلهم من نعيمهم ما يغنيهم عن السلامات والتحيات . أحيّي الذين يبكون بعيونهم ، وأولئك الذين يبكون بقلوبهم : أحيي كلَّ حزين ، وكل منفردٍ ، وكل بائسٍ ، وكل كئيب . أحيي كلاًّ منهم متمنية له عامًا مقبلا اقلَّ حزنًا وأوفر هناء من العام المنصرم

نعم ، للحزين وحدهُ يجب ان يقال « عام سعيد ! »

أجوبة الفتيات

نشرت احدى صحف اليوم تحت هذا العنوان النبذة التالية : « ألقت نشرة امتحانات التعليم الابتدائي الفرنساوية على الفتيات المتقدمات للحصول على الشهادة هذا السؤال « ما هي غايتكِ من الحياة ؟ » . وبعض الأجوبة جدير بالذكر . منها :

« أريد أن أكون من راهبات القديس فرنسيس لأمرّض المرضى طول حياتي »

« لقد قرّ رأيي على ان أكون مركيزة »

« أودّ ان أكون ملكة على فرنسا »

« اشتهي ان أصير أمّاً »

« أود أن أكون راعيةً للغنم »

« أطمع في الحصول على ساعة »

« أريد أن أكون بطلة مثل جان دارك »

« أتمنى ان اسافر وأموت غرقاً »

« أودُّ ان أبرع في أساليب الهزؤ والتنكيت الخ.الخ »

* * *

فسألت نفسي بعد قراءة هذه النبذة « وما هي أمنيتكِ الآن ؟ » وأغمضت عينيَّ منتظرة الجواب . وما أغمضتهما الا وتلاشت الاصوات حولي ، ونسيت محيطي ، ورأيتني سابحة فوق الازرق الوسيع ، ورائحة المرارة البحرية وطعمها يخترقان كياني بينا الأهوية والنسائم يتناقلنني . يا لهذا البحر الجميل كم من أرضٍ محبوبةٍ يحول دونها ، وكم من وجهٍ عزيزٍ يحجب عن المشوق معناه !... وما لبثت ان وجدتني مستلقية على الشاطئ البعيد . . .

أتعرفون تلك البقعة الهادئة المنبسطة على شفة البحر تحت ذياك المكان المدعو « بوطإِ نهر الكلب » ؟ أما زالت هناك كما كانت يخاصمها البحر ويصالحها ليل نهار ؟ هناك أودُّ ان أنام ، شأني وانا في الثانية عشرة من سنواتي البشرية . هناك الرمال ذهبية نظيفة لا تفتأ الامواج تغسلها

وتظلل الاشعة تنشفها . هناك صخور وشقوق أود ان استريح في فيئها سعيدة بالاختلاء والكآبة ، سعيدة بغرز يدي في الرمل الناعم ، معرضة عن كل شيء ، ناسية كل شيء ، مكتفية بمناجاة الاصداف والحصى والذرات حولي وبالقاء هذا السؤال على الكون الصامت « لماذا أوجدتني ، أيها الكون ، وماذا تريد مني ؟ »

. . . .

أويقات سجلت في كتاب الحياة ، أتمنى رجوعها لحظة ويأسف لانقضائها قلبي ، ولكن فكري ليس ليشتهيها لأننا في عالم نشوء وارتقاء . ولئن اكتفى جزء من النفس مرة فهناك جزء آخر يبقى متفلتاً من اظلال الماضي ، تائقاً الى المستقبل المجهول ، لا يعرف لذة الارتواء وسعادة الاكتفاء . . .

وصف غرفة في مكتبة

(أستخرجُ هذه الصفحة من فصولٍ لم تنشر بعد كتبتها تحت عنوان « مذكرات الجامعة المصرية » لسنة ١٩١٦ . والغرفة التي وصفتها تابعة لمكتبة الجامعة وهي اليوم مركز سكرتارية المكتبة . أما يوم كتبتُ فيها فكانت خالية يجتمعُ فيها الطالبات اذا جئن قبل ابتداء الدرس الذي يقصدن حضورهُ . ومنهنَّ الفرنساوية والانجليزية والروسية واليونانية والايطالية والبلجيكية والسورية . ولم تخلُ تلك الاجتماعات الاّ من الفتاة المصرية وهي الحقيقة بحضور الدروس اكثر من غيرها لأنّ الجامعة جامعتها اكثر منها جامعة الاجانب

كنا نجتمع هناك كمؤتمر دولي التأم لعقد الهدنة وتقرير شروط الصلح ، او كمؤتمر نسائي غرضه المطالبة بحقوقه والمجاهرة بمطالبه . ولكنّ الاحاديث الدائرة بيننا لم تكن

لتدل على ذلك بل كانت مقتصرة على اخبار «الكونسرتات» والسينماتوغرافات والازياء واشكال البرانيط الحديثة . ويتخلل هذه الثرثرة النسائية المحضة ضحك « يدبُّ دبيبهُ » في كل موضوع تجاذبت أطرافهُ فتاتان ، فكيف به اذا صار ضجة فتيات كثيرات ؟

من عجائب الحديث النسائي ان السيدات اما يصغين جميعاً ولا تتكلم منهن واحدة ، وهذا نادر . واما يتكلمن جميعاً في آن واحد ولا تصغي منهنَّ واحدة . وكانت الحال الثانية حالنا في اجتماعاتنا نظلُّ عليها حتى يعرض لنا ذكر موضوع الدرس ، فيهدأ ضجيجنا بغتة ونصغي جميعاً الى المتكلمة فينا ولا نحجم عن بثِّ الآراء والمناقشة أحياناً . ونبقى « عاقلات » حتى يمر في الحديث خيال نكتة صغيرة فنعودُ الى الثرثرة والضحك المتقطع المتواصل

اجتماعات لطيفة كاجتماعات الفتيات في كل زمان ومكان ولكننا لم نكن لنهتم « بسرّ » الغرفة التي تجمعنا جدرانها ؛ ولم انتبه لذلك « السرّ » الا يوم وجدتني هناك

وحدي ناظرة الى ما نُشر على الجدران من رسوم أعاظم الكتاب والمفكرين)

* * *

يقال ان في العالم نحو ثلثمائة جامعة . ولئن كانت الجامعة المصرية أحدث هذه الجامعات سناً واقلهنّ فائدة مادية (لانه ليس لالقابها حروف شتى يجررها الطلبة وراء اسمائهم)، فهي مع ذلك آخذة مكانها بينهنّ . ولها ميزة خاصة بكونها جامعة أهلية

على أنها ليست الجامعة الاولى في الشرق الادنى

ان الازهر الشريف أقدم جامعات الشرق والغرب لانه تأسس في القرن العاشر في حين ان اقدم جامعات اوربا — وهما جامعتا بولونيا وباريس — لم توجد قبل القرن الثاني عشر

يجلل الازهر وقار القِدَم . غير ان بابه مقفلٌ في وجه غير المسلمين وتعاليمه دينية لغوية في الغالب . فهو في نظر

كثيرين حلم عميق للمرء ان يذكره ويحدّث عنه ، ولكن لمسه ليس بالامر الميسور

اما الجامعة المصرية فمفتوحة للجميع ولا تقلل من فضلها حداثة سنها . إنّ كلّ صغير محبوب لانه يطلبُ العطف . كل صغير مستودع آمال كبيرات لان له قابلية النمو والتكاثر

قال الفرد ده موسيه (وهو الشاعر الذي أعطي قوة التعبير عن أعمق العواطف بألطف الالفاظ) « كأسي صغيرة لكني أشرب من كأسي » . وعلى هذا القياس للمصريين ان يقولوا : « جامعتنا صغيرة لكننا نتعلم في جامعتنا »

* * *

ليست الجامعة منهل علم لطلبتها فحسبُ ، بل هي مهبط وحيٍ لي حين ابلغها قبل ابتداء الدرس الذي ابتغي حضوره بدقائق اقضيها منتظرة متأملة

فكم من فكر أنساني ما يحيط بي من آثار الحياة !

وكم من تأمل التقط موضوعه نظري بين وريقات شجرة خضراء تتمايلُ امام النافذة ! وكم من حلم لمحت خطوطهُ مرسومة في جوّ قاعة الدرس وألوانهُ متخللة خيوط الاشعة المطلة علينا ! أفكار وتأملات واحلام رفرفتْ عليّ حيناً وغنّت في نفسي كالاطيار ، ثم فتحت جناحها الذهبي ساعة جاء الدرس ينبهني - فتحت جناحها وانطلقت تعدو الى آفاق قصيّة اجهلها واحبها لأن لي فيها اطياراً خيالية

انا الآن في غرفة صغيرة تابعة لمكتبة الجامعة ، وليس في هذه الغرفة من الكتب الا ثلاثة أجهل اسمها ولغتها لانها خفيت تحت كتاب رابع من تآليف مارمونتل . وهذا أديب فرنسوي لم يتفوق في موضوع من الموضوعات الكثيرة التي عالجها ، بل اكتفى بالاجادة فيها جميعاً اجادة معتدلة ، تاركاً البراعة والتفوق لاستاذيهما الكبيرين : فولتر وروسو . روسو الذي حاول تكوين مجتمع جديد بقلمه القادر البليغ وملأ العالم ندباً ورثاء . وفولتر الذي كافح القيود الدهرية برأس قلمه الرشيق النافذ كالسهم الى اعماق الافكار ،

وبابتسامته الخالدة التي يرى فيها اتباعُـهُ فجرَ الحرية المنبثق من ليل العبودية الأليل

ان للأمكنة أوراحاً ، وفي هذه الغرفة الصغيرة روح تناجيني وسرٌّ أطمع في اجتلاء غوامضه . كلّ ما يحيطُ بنا في الحياة سرٌّ ولغزٌ لكنَّ حواسنا المثقلة بأحمال المادة تحجبُ عنا الأنوار ، فلا نرى للاشياء وجوداً ولا ندركُ لها حقيقة الا بقدر ما تتفقُ معانيها مع أطماعنا وشواغلنا

كلما رأيتُني وحدي في هذه الغرفة شعرتُ بان في جوّها روحاً . أهي مجموع أرواح النوابغ الحاضرين هنا برسومهم وبخيالات الافكار المطلة من احداقهم ؟

نهضتُ أمشي في الغرفة ، امشي وافكر . وراء الطاولة التي أكتبُ عليها صورةُ سفينةٍ ركبت من البحر جواداً حروناً وسارت تقطعُ الامواج الكبار بقوةٍ وثبات . وتحت السفينة إطار حوى ورقة ممزقة وفيها بعض السطور الهيرغليفية

الكتابة الهيرغليفية قرب الباخرة ! ان جوار هذين الرسمين لرمزيٌّ : السفينة فينيقيا والخط الهيرغليفي مصر

فينيقيا ومصر !

المدنيتان القديمتان اللتان بزغت منهما مدنياتنا الحديثة وانحدرت من ذراريهما تواريخ ذرارينا ! ترى هل وقفنا على جميع ما فيهما من الاسرار وعرفنا كل ما كان عندهما من علم وفن ومقدرة وسلطان ؟ أم نحن في ذلك مدّعون دعوانا في سائر اقسام المعرفة ؟

قبل ان يكتشف كولمبس القارة الاميركية بقرون طويلات كانت سفنُ الفينيقيين تضربُ في البحر طولاً وعرضاً وقد عيَّن التاريخ خطوط رحلاتها ، ولكن أيُّ شيء اجهل من العلم ان لم يكن التاريخ ؟ ومن يدرينا ما اذا كانت اليد التي شادت الاهرام واقامت الهياكل المتراكمة اليوم بقاياها على رمال النيل هي غير اليد التي أوجدت هياكل تُرى الآن انقاضها في أواسط امريكا ، ونحتت ما عثر عليه لورد دوفرن من مسلات مصرية ونقوش شرقية في كولمبيا البريطانية ؟

والتليفون الذي أراه في زاوية الغرفة على مقربة من

الكرة الارضية أهو اختراع هذا العصر فحسبُ؟ ألم تكن من نوعه الآلة التي يقال انها كانت مستعملة عند كهنة ايزيس واوزريس لمخاطبة كهنة الهياكل الاخرى من أقصى البلاد الى اقصاها خلال الاحتفالات السنوية الكبرى والاجتماعات الدينية؟ ولماذا لا يقوى العلم الحديث على استخراج الارجوان من الاصداف كما كان يفعل الفينيقيون؟ لماذا لا يُخرج لنا الواناً ثابتة لا تنفض نضارتها كالوان هياكل الاقصر؟

أكان أجدادنا جاهلين ام نحن لهم ظالمون؟ ام كل الفرق في ان العلم كان عندهم محصوراً ضمن الاقلية المنتخبة وقد أصبح في زماننا «حصة من جدَّ اعتزاماً»؟

* * *

ولكن لنتابعن سيرنا في الغرفة:

في منتصف الجدار الى اليمين صورة هوغو في شيخوخته ويده تحمل جبهته المثقلة بالافكار العظيمة. كأنما

هو في جلوسه يناجي الاجيال قائلا : ها انا ذا ! انا هوغو الذي اناته الحياة مجداً وثروة وحباً . انا ذاك الذي شاخ في المنفى فكان سعيداً في الشقاء . انا ذاك الذي بحث عن نوابغ الماضي ودوّن اسماءهم تاركا بعدها مكاناً واسعاً لاسم جديد . والاسم الذي أعني انما هو اسم الرجل الجالس هنا حاملا على يده جبهته المثقلة بالافكار العظيمة : فيكتور هوغو !

والى شمال هوغو أرى الفيلسوف الرياضي ديكارت الذي قال فولتر في وصفه انه جعل العميان يبصرون ، اذ بيّن للقرن الخامس عشر اغلاط القرون الخاليات وجعل شعار هذه الجملة : « لتبلغ الحقيقـة يجب ان تنسى مرة في حياتك جميع الآراء والاعتقادات التي شببتَ عليها ، ثم تقيم اسساً جديدة لآراء واعتقادات شخصية »

الى شمال ديكارت أرى بوسـويه اسقف « موو » . ترى بأي شيء يمرّ ديكارت الى بوسويه في ساعات الوحدة ، وبماذا يجيب الاسقف الكاثوليكي ؟ ليت لي من سبيل الى

التجرد من جسدي حيناً لا أسمع محاوراتهما ولو مرة واحدة ، ولأعلم كيف يتناقش العلم والدين في عالم الارواح

على يمين هوغو موليير الشاعر الفذّ الذي ملأ رواياته ، وراء لهجة الاستخفاف والظرف والتنكيت ، انتقادات اجتماعية وعلمية ودينية ، وعلّم أهل زمانه الضحك من انفسهم غير متذمرين

وعلى يمين موليير وجهٌ نحيف جذاب . من هذا ؟ لو نسي مصوّرك كتابة اسمك تحت رسمك ، لو دُرِسَت آثار فكرك وعلمك وانتقادك وطمس الزمان كل ما أيده قلمك ، لو أكلت النارُ وجهك غير مبقية الا على شفتيك لعرفتك يا فولتير ! يا لفمك من فم هائل في كلامه ، هائل في بسمته ، هائل في سكوته حتى في سكوت الصور !

تحت هوغو اطار ذو رسمين يمثل أحدهما راسين والآخر بوالو . ولو انصفت الجامعة لوضعت راسين فوق هوغو واقصت النظّام بوالو عن الشاعرين . لكني أفهم ان

صورة هوغو عندها اكبر من صورة راسين . كذلك تسير مواكب الحياة ! فكثيراً ما يقطن الاكبر تحت الكبير ويقف الاحسن دون الحسن ، ولكلٍ ان يرضى بما قسم لهُ لان الزمان شاء ومشيئته لا تتغير !

من زاوية فولتير الى الباب تمتدُّ مكتبة صغيرة خالية مما وُجدت له ، تتجلى فوقها صورة امرأة عظيمة : مدام ده سفينيه ! كم تسرني رؤية هذه المرأة قرب هؤلاء الرجال ! كأن وجودها هنا عنوان اهتمام الجامعة بالفتيان والفتيات على السواء ، وكأن صورتها على هذا الجدار صوت يستحث الفكر النسائي قائلاً : الى الامام !

على الجدار المقابل لجدار فولتير صورة فنيلون « اسقف كمبري » مؤلف كتاب « تليماك » المفعم بالانتقاد الدقيق الخفي لحكومة لويس الرابع عشر وللملك العظيم نفسه . والى جانبه معاصره الشهير كورنيل واضع الروايات البديعات اللائي ما برحن ميداناً فيه الحب والواجب يتنازعان

وعند الباب هيكل عظام بشري الا انه صُنع من خشب الجوز او من خشب آخر دُهن بهـذا اللون . كل ما هنا يساعد ما في جوارهِ لجعل هـذه الغرفة كبيرة في صغرها ، عظيمة في سذاجتها

صدق القائل ان للغرف أرواحاً . . .

أحبُّ روح هذه الغرفة الممزوجة من أرواحٍ شتى

وهل من مخبر بما رأتهُ هذه الجدران قبل ان تكون للجامعة من أتراحٍ وأحزان ، وبما شهدتهُ من تقلُّبات الحدثان ؟

لعلها سمعت تنهداتٍ لم يلنْ لهـا قلبٌ ، او رأت قلباً وحيداً لم يشاركهُ في ابتهاجه مشارك ؟

لعلها رأت دموعاً سخينة لم تمسحها اليد الرحيمة ؟

فولتير ! هوغو !

لو تكلَّمت الجدران لكانت أتمَّ منكما بلاغةً وأعمق تأثيراً !

في محكمة الجنايات

زرتُ اليوم مكاناً لعلّه أرعب الامكنة بعد مسارح الجرائم الخفية ومواضع تنفيذ الاعدام. أعني القاعة الكبرى في محكمة الجنايات حيث يُصدرُ العدل البشريُّ أشد أحكامه على مَن يكون في عرفه مجرماً. ذهبتُ الى تلك القاعة حيث تنعقدُ المحكمة العسكرية لمحاكمة المتهمين بانهم من أعضاء « جمعية الانتقام » المتآمرة على خلع السلطان، وقتل الوزراء، وقلب الحكومة، والتحريض على الثورة في البلاد. ما أرهب هذه الكلمات التي تصوّر للمخيلة مشاهد الظلم والفتك والدماء والدمار! ومن مميزات الحركة النسائية الجديدة ان المصريات امتزجن بالحياة العامة فصرن يظهرن في كل اجتماع قومي، حتى وفي أحرج المواقف وأوجعها للقلوب الوطنية. كذلك حضرَ بعضهن جلسات المحكمة بالتتابع

دخلتُ الدهليز الواسع بين الجنود المنتصبين يمنةً ويسرة، وخلالهم يختلط المحامون باصحاب القضايا ويناقشونهم باصوات خافتة على رغمٍ منهم. فتلقاني جنديّ حاجبٌ قدّمت لهُ تذكرة الدخول فأوصلني الى آخر. وسار بي هذا الى ثالث وأنا أعدُّ الازرار الذهبية المنضدة على كتف كلٍ منهم، وأتظاهر بعدم الاكتراث لأسكت دقات قلبي. وما كان حتى رأيت ضابطاً ينحني امامي وهو يفتح باباً لم اسمع لهُ ما يشبه الصوت. فوجدتني بغتةً في قاعة متوسطة الاتساع قد تبلغ مساحتها العشرين متراً طولاً على عشرة أمتارٍ عرضاً. وبدلاً من ان اخطو وراء الجندي الذي سار ليدلّني على مكاني، ظللتُ واقفة وانا في اجفالي اتفرّسُ في الوجوه المستوية في صدر القاعة وقد اشرأبّت نحوي جميعاً. غير أن الذي تكفّل بايصالي عاد اليّ ثم مشى يهديني حتى أجلسني على المقعد الرابع، وعلى مقربة مني « قفص » المتهمين

أجميع الحضور يحدّقون فيَّ أم انا في هلوعي أظنهم فاعلين؟ رفعتُ بصري أتبيّن الامر في سيماء القضاة اولاً

فإذا بهم يرقبونني وقد ادركوا في سرّهم مقدار جزعي واضطرابي. وهل من نظرٍ ينفذُ الى إعماق النفس ويعرّيها من استارها كنظر القاضي؟ ربما كان هناك شخص واحد يفوقه براعة، وهو الكاهن الكاثوليكي الذي يكسبهُ تعاطي الاعتراف واستماع شكايات الناس، حنكة ودراية ومعرفةً باسرار النفوس لا يماثله فيها من العلمانيين غير من شفّت بصيرته بانوار الالهام

لم أجرأ على النظر الى المتهمين. وشعرتُ بان أسلم النظرات عاقبة وأضمنها براءة هي نظرة أصعدُ بها الى سقف المكان مستوضحة هندسته وزخرفه

زخرف محكمة الجنايات؟ ما هذا المجون؟

نعم؛ هناك زخرفٌ وتنميق، وهو عبارة عن خطٍ عريض نُقش بالنقوش الحجرية البيضاء ودار حول سقف القاعة في أعالي جدرانها الكلسية الجرداء. وقطعتْ خطوطٌ أخرى من نوعهِ السقف ثلاثاً وأنالته شكلاً مرضياً. ثم هبطت عيناي الى الحوائط، وفي أحدها القائم شمالاً شبابيك

كبيرة واسعة رُفعت الاستار الكتانية الى أوجها فتدفق خلالها نورُ النهار الداخل من الحديقة الفاصلة بين هذه القاعة و بين الشارع حيث يسير الناس احراراً غير مقيَّدين . ولما فرغتُ من تفحُّص الحائط والنوافذ والستائر ، واستنزفتُ عليها كلَّ ما جال في دماغي من ملاحظة ومناقشة وتعليق ـ مشى بصري قليلاً قليلاً الى صدر الغرفة حيث استوت هيئة القضاء لتحكم بقسطاس العدل

أين ذهب اضطرابي حتى واجهتُ نظر القضاة بهدوء هذه المرة ؛ وبي شعور يشبه الراحة والطمأنينة ؟ فعدَّلتُ جلوسي واستعدادي العقلي لأضع الاشياء في مواضعها

هيئة المحكمة تتألف من قضاة عسكريين أربعة يلحق بهم المترجم ، ويرئسهم قائد تبدو مرتبته في الاشرطة الحمراء المذهبة على كتفيه وكميه ، وفي صفيّ الاشرطة الملونة الصغيرة الممتدَّين على صدرهِ واحداً فوق الآخر ليدلاَّ على ما عنده من مختلف المداليات والاوسمة . ويتوسط الهيئة « نائب الأحكام » وهو قاض في المحاكم المختلطة واحد كبار

رجال القانون الانجليزي ، وهو وحده بين القضاة يلبس الشعر العارية الابيض والرداء الاسود . والى اليمين كرسي المدعي العمومي ، او مدَّعي الملك، كما يسمونه في هذه القضية ؛ وهو كنائب الاحكام يلبس الشعر الابيض والرداء الاسود . وأمام المحكمة مكان المحامين ، فموقف الشهود ، تتناسق متتابعة وراءه مقاعد القاعة التي أجلس أنا في صفها الرابع ، والى يميني قفص المتهمين الذي تنتهي حدوده من الجهة الاخرى قرب هيئة المحكمة

أيّ المواقف أغرب من موقف المتهم ازاء القاضي ؟ وأي كرهٍ قسري بين هذين الاثنين — بين شخصٍ ضعيف اعزل تحت رحمة الآخر ، وبين هذا الآخر الذي وُجد ليفسر الحركات والمعاني ويتصرف كيفما شاء في مصلحة المتهم وراحته وحياته . أيّ عداء وأي اختلاف أعظم من هذا ؟ مع ذلك فالاثنان خاضعان معاً لجميع نواميس الطبيعة واهوائها . فلو تساقط الثلج الآن لانتفضا معاً ، ولو زلزلت الارض زلزالها وفغرت فاها لالتهمتهما

معاً . ولو انتشر مكروب خبيث لتناولهما معاً ولتألم كلٌ على حدة بمثل ما يتألم الآخر . بل ها هم جميعاً قد كلّت أدمغتهم وأغمضوا عيونهم وفي كل منهم احتياج يظهر حتى وفي تصلّب جلوسه — احتياج الى ان يتثاءب ويتمطّى كما يفعل الاسد ، او كما تفعل هرّتي البيضاء عندما تأبى ملاعبة من لا يعجبها . وعند ما تخرج كلمة هزلية من فم المحامي او القاضي او الشاهد تلمع عيونهم جميعاً ويشتركون في الضحك . والئن بعث القضاة الى المتهمين بنظرة نافذة مستفسرة باردة كالسلاح الابيض ، حيناً بعد حين ، فلواحظ هؤلاء تخال باسمة في الغالب

نعم — في جميع عيون المتهمين ابتسام ، وهيئة القاعة عموماً بسيطة ليس فيها ما كنت أتوقعهُ من مظاهر الغم والعبوسة . كأنها مكتبٌ لأي عمل من الاعمال التجارية مثلاً . وبينا المدعي العمومي يتابع شكايته مستطرداً في الاتهام فيأتي بالحجة بعد الحجة ، وبالاثبات تلو الاثبات — اذا بالمتهمين لاهون عن أقواله بما بين أيديهم من جرائد

ومجلات يقلبون صفحاتها ، ثم يتحادثون كأنهم يتبادلون الآراء في الموضوع الذي يقرأونه ولا علاقة له بالمحاكمة اصلاً . ثم يرتسم الحزن في سواد عيونهم وتبرز على جباههم أحكام نقشها لهم القدر في كتابه النحاسي ، فيتأملون قليلاً ويتنهدون . الا ان اجتماعهم اجمالاً يشبه أي اجتماع مدرسيّ جدي . اقول « مدرسي » لانهم من طلبة المدارس العليا . فهذا كان يدرس الطب ، وذاك القانون ، والآخر من طلبة الازهر ، وغيره من مدرسة القضاء الشرعي ، وهيئة التلامذة عليهم جميعاً الا عبد الرحمن بك فهمي الواقف في مدخل الممرّ الى القفص كالجبار ، وعليه ملامح الحكام والوزراء (١)

حسن بزتهم يشير الى درجتهم الاجتماعية ، وفي عيونهم

(١) عبد الرحمن بك فهمي سكرتير لجنة الوفد المركزية متهم بانه كان عدّ « جمعية الانتقام » بالمال والسلاح ، وهو من وجهاء البلاد وكان مديراً لمديرية بني سويف (المدير في مصر يوازي الوالي في سوريا قبل الانقلاب الاخير بل قد يفوقه اهمية) ثم عيّن وكيلاً لوزارة الاوقاف

ترقص أنوار الحياة ، وعلى شفاههم يبسم رونق النضارة ، وفي ذقون بعضهم تلك الطبعة الجاذبة التي يحسبها أهل الفراسة علامة الحب الشديد ورمزاً الى ان في صاحبها احتياجاً للشعور بان لهُ من يعزّهُ ويحنو عليه . وان حرمه شقي شقاء لا يدركه غير أمثاله . فكيف يحتمل هؤلاء حياة السجن وراء الابواب المقفلة وفي عناء الاشغال الشاقة ؟ وكيف يحتملون القيود والاغلال وكل ما هيأه المجتمع من نظام ولباس يحوّل يأس الجاني الى سخرية ظاهرة ؟ وأي التوسلات ستنطلق من هذه الافئدة ، وأي الدموع ستلهب هذه المحاجر ؟

تلاشى فجأة ما يحيط بي ، واتسع القفص ، وأضيفت اليه جميع الاقفاص في جميع محاكم العالم وقد حشر فيها الالوف والملايين . ورأيت في عيون الجناة صور جناياتهم ، وفي عيون الابرياء صور براءتهم ، وفي جميع العيون أشباح الخوف والفزع . ثم انهدمت جدران القاعة

وارتدَّت حدودها الى ما وراء جميع المحاكم في الماضي والحاضر والمستقبل . وصار القضاة الخمسة ألوفاً وملايين ، ونظراتهم النافذة المستفسرة الباردة كالسلاح الابيض تتَّجه نحو العيون المذعورة . وسمعتُ الاحكام على العبيد وعلى الملوك ، على المظلومين وعلى الظالمين ، وتراءت لي السجون بغمومها والاشغال الشاقة بذلّها ، وآلات التعذيب بهولها ؛ وبدت أمامي وجوه الجرائم والفظائع والشرور فتقطَّعت أوصال إحساسي . وفي هذه الغرفة التي كانت تبسمُ منذ هنيهة سمعتُ صلصلة السلاسل وقعقعة القيود ، ولمحتُ احكام الاعدام على لابسي البذلات القرمزية السائرين نحو المشانق عراة الاقدام . . .

ما هذه الضوضاء التي تخرج بي من هذا الكابوس الفكري ؟ أكلّ هذه جلبة الحبال في الاعناق ؟ كلاَّ ، بل حانت ساعة الانصراف ، ورفعت الجلسة ، وانفرط عقد المجتمعين وها هم يخرجون الى الدهليز الوسيع المؤدي الى

الشارع . وهناك عند العمود الضخم المنتصب امام المحكمة رفع احد المتهمين نظره الى افريز العمود الاعلى ثم اداره سريعاً الى الارض وارسل زفرةً محرقة . فنظرتُ الى الافريز الاعلى واذا بطائرين قد وقفا جنباً الى جنبٍ ينشدان انشودة الحياة والحب والحرية

« سعادة » ملك اليونان

نقلت برقيات اليوم خبر عودة الملك قسطنطين والاسرة المالكة الى بلاد اليونان ، فقالت انه قوبل بحماسةٍ شديدة وروت عنهُ هذه الكلمة « اني سعيد بالعودة الى وطني »

طبعيٌّ ان يسرّ المرء بالعودة الى بلادٍ أُقصي عنها وهو يحبها ؛ طبعيٌّ ان يرتاح لاستنشاق هوائها لا سيما ولهُ فيها عرش كسائر العروش انتصبت قوائمهُ على قوة الاستمرار والتسليم بلا مناقشة . ليس تلاميذ المدرسة اليونانية الذين اسمعهم يهتفون لقسطنطين عند الانصراف هم وحدهم اطفالاً يؤيدون من يجهلون وينادون بما لا يفقهون . الجمهور طفل بوجهٍ عام . موجة ترفعه وموجة تدفعه . انفعال يطير به الى قمم الجبال وانفعال يهوي به الى أعماق الهاوية . يولّهُ الساعة من سيذلّ بعد ستين دقيقة وسيمجّد غداً ما قدسهُ أعواماً ودهوراً . وهو في كلّ ذلكم هائج مائج ، مسيَّر غير مخيَّر يتدافع بلا تروٍ او تعقل

ومن الغرائب ان الاشياء تقوى بالتضاعف الا ذكاء الجمهور . فلو اختير خمسة أشخاص أو عشرون شخصاً من أرقى الناس وجُمعوا للمناقشة والبتّ في أحد الموضوعات ، وافرد لمثل ذلك شخص واحد متوقد الجنان ماضي العزيمة فلربما جاء الفردُ بما قصرت دونه الجماعة . لأن مستوى الذكاء يهبط في الجمهور ويختلط بينما هو في الفرد يسمو ويتناهى . وهو حدث سيكولوجيّ معروف لدى علماءِ النفس . ولعلَّ المقابلة بين قاموس الاكاذمية الفرنساوية الذي يشتغل فيه عشرات « الخالدين » منذ عشرات الاعوام ، وبين قاموس لاروس الكبير الذي أنهاه فردٌ واحد دون مساعدة أحد ـ لعلَّ هذه المقابلة مصداق يقبله كثيرون

على ان كلمة الملك تستوقف الذهن وتنبه الهواجس عند ذويها . يقول انه « سعيد بالعودة » . ولكنّ سبب هذه العودة راجع الى موت ولدهِ ، اذ لو بقي الملك اسكندر على قيد الحياة ما تقيّض لأبيه أن يغادر سويسرا في هذه الآونة . واذا كان « سعيداً » بالنتيجة فكيف لا يكون

سعيداً بما أدّى اليها ، أي بوفاة ولدهِ ؟

والذي ساقته الهواجس الى هذه النقطة لا يحجم عن ان يخطو خطوةً أثيمة أخرى، فيقول : اذا سعد الملك بتلك الوفاة بعد وقوعها ، فأي مانعٍ منعهُ عن ان يسعد قبلئذٍ بتخيل احتمال وقوعها ؟ ترى ألم يمرّ في مخيلته خيال الموت وولدهُ على فراش المرض ؟ ومن يدري ؟ ألم يتحرك في قرارة نفسهِ شيء يشبه الخوف او . . . التمني ؟

لا ، لا أريد استطراد التحليل ! وسواء أكان هذا الوهم ممكناً او مستحيلاً في قلب والدٍ او والدة فان النفس البشرية تبقى دواماً هي هي في ارتباك انفعالاتها واشتباك نزعاتها . ولئن كانت العواطف الأبوية قوية في الغالب فلكم ضُحّي من ولدٍ لغايةٍ شخصية ، أو لاجل قريب ، بل لأجل غريب اذا احسن ذلك الغريب لمس الموضع الحساس من حبّ الذات ، او علل طمعاً من اطماع النفس او مناها باحدى رغائبها . . .

لمحة مرعبة في قلب الانسان . فلنحولنّ النظر الى ما هو أقلّ ادلهاماً !

ماك سويني

على ذكر الملك اسكندر اقول اني ككثيرين غيري ، كنتُ ارقبُ الأخبار عنهُ صباح مساءَ كل مدة مرضه . لم اكن لاهتم بشخصه من حيث هو ملك اليونان «الموافق» الآن لسياسة الدول . لقد اتعستني الطبيعة ـ او اسعدتني ـ بأن جعلت لفافة السياسة في دماغي جافة عقيمة لا تتأثر ولا تتحرَّك . الا انه كان مذكوراً بالخير لسحقه تقاليد راسخة وتحطيمه سلاسل وثيقة بزواجه من فتاةٍ من ذوات الدم الأحمر الحيوي الفوَّار ، بدلاً من الدم الازرق « الشريف » الذي ليس بشريف ولا هو بأزرق في غير دعوى مدَّعيه

كذلك كنت أهتم لأخبار ماك سويني اذ كاد يدخل العليلان دور النزع معاً ، وقد توفي أحدهما بعد الآخر بساعات معدودات . وكلٌ منهما بطلٌ في بابه ، ضحية في بابه : فهما مختلفان متشابهان

ملك اليونان يقضي بعضة حيوان غاضب ، يقضي
مرغماً تمرّضه امرأة عزيزة . والآخر يقضي ببطء مختاراً لا
يداويه عزيز، ولا هو يسير بنشوة الحماسة وجنونها نحو الموت
بل ينتظره انتظاراً رياضياً ، منظماً ، متتابعاً، متماسكاً عنيداً.
يموت لينفِّـذ كلمة قالها عند دخول السجن : « سأخرج
من هنـا بعد شهر حياً أو ميتاً » . ولم يثنِ عزمه ذكر
زوجةٍ وابناء ينتظرون نعيه في البيت الخالي منه وحيث لن
يعود قط

أي رجل كان ذلك الرجل ؟ حمل ثقيل أزيح عن عاتقي
عندما علمت بانتهاء آلامه

لقد طالعت كثيراً مما كُتب عنه في الصحف الانجليزية
وغير الانجليزية ، وقرأت يوميات دوّنها في سجنه ـ وقد تكون
مختلقة او محرّفة . وحضرت قداساً اقيم في كنيسة القديس
يوسف لراحة نفسه . وظهرت هنا بعض الصحف الوطنيـة
مصدرة برسمه ، وقد جرت في اعمدتها انهار النظم تنويهـاً
بشجاعته وبطولته. اما انا فلم افهم بعد اية خدمة ادى الى

وطنه ، وأي درس ستتلقى ارلندا من موته سوى درس المثابرة والثبات ؟

أليس من الخسارة الفادحة ان يلاقي رجل كهذا حتفه مختاراً ، ليعطي وطنه امثولة كان في وسعه ان يعطيه عشرات لا تنقصها اهمية وان اختلفت عنها نوعاً — في حياته ، حتى اذا حانت ساعة الموت رحل عن الدنيا بميتة هي انبل من الميتة الغبراء واسمى ؟

زواج الملوك

« اثينا في ١٠ مارس سنة ١٩٢١ ـ احتفل في الكاتدرائية بزواج ولي عهد رومانيا بالبرنسيس هيلانه اليونانية ـ روتر »

زار وليّ عهد رومانيا مصراً في الشتاء السابق قاصداً الى اليابان ، على ما أظن ؛ وقد دُعيت رحلته يومئذٍ « حمية النسيان » فصارت اليوم « رحلة الشفاء » . أرسلوه يجوب الأقطار ليسلو زوجته وولده وليُقدم على اهمالهما وانكارهما . لأنه هو الآخر فعل فعل الملك اسكندر واقترن بابنة ضابط بسيط . غير ان اسكندر اليوناني تزوج بعد ارتقائهِ العرش يوم لم تكن في الدولة فوق ارادته إرادة . أما كارول الروماني فحاول التملّص من وثقٍ تجعله انساناً مركباً ، مقيداً ، رهين اهواء المناورات الدولية . فتنازل عن العرش الموعود ، ورفض تاجاً يهيئه لهُ المستقبل ، ورضي بأن يبقى رجلاً بسيطاً حراً سعيداً

بزوجته وولده ، وان يتمتع بالحقوق العامة كأحد رعايا رومانيا دون أن يطمح الى ميزةٍ اخرى

كان ذلك ؛ فأرسلوهُ يُسرِّح عواطفه بين ماء القارة ويابستها . وعندما عاد بعد ستة اشهر الى عاصمة رومانيا كان خطيب هيلانة اليونانية . وإذ وقف يشكر الذين شربوا نخبه في الوليمة الرسمية التي اقيمت احتفاءً بعودته، رفع الكاس بيدٍ ثابتة وقال بصوتٍ جليٍّ أدهش الحاضرين : « عامتُ في رحلتي هذهِ ان المرءَ يخصّ وطنهُ قبل كل شيء »

ولما كنت أقرأ وصف المهرجانات المعدة في اثينا احتفالاً بمجيء الملك قسطنين والعائلة المالكة كنت أفكر على رغمٍ مني في امرأةٍ تمزق قلبها أصوات الفرح . هي وحدها تلبس السواد في وسط الزينة والابهة ، وتبكي تحت نقاب الارامل بينما الملكة تركز على جبهتها تاجاً كادت تفقدهُ ، وترصّع صدرها بجواهر العرش . تلك المرأة وحدها تذكر في وسط النسيان الشامل ، وشيء كثير ان يكون للمرء قلب واحد لا ينسى

وهناك امرأة تشبهها في بخارست ، غير ان زوجها حيٌّ سعيد وقد تملكتهُ من جديد اطماع الملوك واطماع انصاف الملوك ، وتهلّل شعبهُ بهداه - أو على الأقل زعم انه تهلل . الجريمة التي يعاقب عليها القانون بصرامة في طبقات المجتمع على اختلافها يُرغم على ارتكابها من يُعدّ بعد الملك منبع الشرف في الدولة ، ويحسبون امتثاله وذله عقلاً وحصافة ؛ فيسارع ملكٌ آخر الى تسليمه يد ابنته وحياتها . ومَن توفرت له هذه المزايا فلا بد ان يكون في الغد ملكا عظيما . . .

أرملة اسكندر في أثينا ، وأرملة كارول في بخارست : ترى أيّ المرأتين اشقى ؟

الشباب والموت

لم يهمل سادتنا العلماء موضوعاً هو في نظر بعضهم الموضوع الأمثل

نحن نسمي هـذه الدنيا « وادي الدموع » ثم نشفق على الذين يغادرونها ، وأقصى ما نتمنى هو ان نعمر طويلا متمتعين بخصائص القوة والصحة والشباب

لقد استولت تلك الامنية على قلوب الناس فجعلتهم آناً كاذبين محتالين ، وآونة خونة مارقين . كم أفسدت من عملٍ نبيلٍ ، وكم قادت الى فظيع الجنايات

كلٌ منا يريد التفلُّت من شِباك الردى ليطيل الجلوس في مأدبة العمر مراقباً مناظر الطبيعة ، متسقّطاً أخبار العالم ، نائلاً حظهُ من التنعم والتلذُّذ ـ ومن التوجع أيضاً . ولَكم متن قيدُ الألم حتى تجاوزهُ الفلّ ، بينما قيود الحبور مقطَّعة الأوصال ، لا تفتأ تُهصر مادتها لتستحيل ألماً ذا طعمٍ جديد

كذلك أخذوا يبحثون عن «عين الحياة» التي اوجدها زفس [1] فوصفها احد علماء الجغرافيا وصفاً . . . جغرافياً ، وارتأى كاتب روائي انها تأتي من النيل ومن أنهار الفردوس الأرضي ، وان قطرة منها تعيد الى العليل صحته والى الشيخ شبابه . ومضى يطلبها رحّالة اسباني فاكتشف مقاطعة فلوريدا وهي من الولايات الامريكية المتحدة . وانحنى الكاباليون على الصهور الكيماوي يبحثون عن مادة الشباب فتبارى بايكون ، وسن جرمان ، وكاليوسترو في تركيب « اكسير الحياة »، وتعددت الكتب الدالة على وسائل إطالة العمر وحفظ الشباب . ومتصفّح جريدة « السائح » النيويركية ومجلة « الاخلاق » يرى هناك اعلاناً عن « كتاب الاكتشاف الثمين لاطالة العمر مئات من السنين » بقلم الدكتور لويس صابونجي السوري الذي كان سكرتيراً ثانيًا للسلطان

(١) في خرافات الاقدمين ان جوبتر إله الآلهة حوّل حورية من بنات الماء الى ينبوع يعيد الشباب والصحة الى كل من استحم بمائه

عبد الحميد واستاذ التاريخ لنجلهِ البرنس برهان الدين

وها اخذت تهتم الدوائر العامية بمباحث الدكتور ڤرونوف، وتجاربه الدائرة حول استبدال الغدد المتداخلة بين الانسجة بغددٍ جديدة تُستخرج من الحيوانات. ويقال ان النجاح باهر يحوّل الشيخ شاباً بلا وجعٍ ولا ألم بل بحقنة بسيطة تحت الجلد

الى هنا وصلنا من طمعنا الأكبر. وحسن ان يستعيد المرءُ شبابه وان يحفظه طويلاً، ولكني لا أرغب في ابعاد الموت عن البشر

لقد وصف الكاتب الانجليزي «سويفت» في كتابه «رحلات جلفر» حال قبيلة استرالدبرج المحتَّم عليها ان تعيش دواماً. فقال ان أعضاءها يصرفون المئة سنة الاول وشأنهم شأننا نحن النوع الآدمي، حتى اذا تجاوزوها أُصيبوا بكآبةٍ يائسة وساورتهم الهموم والغموم. ينادون الموت فلا يلبي نداءهم، ويجدفون على الحياة كلما شهدوا موكب جنازة، ويمقتون الطبيعة التي حرمتهم لذة الموت وهناء

الاستسلام الى الراحة الدائمة

وأي نصيب أمرّ من هذا ؟

ألا انما قيمة الحياة في رهبة الموت الذي هو جزءٌ منها . واذا أدرنا البصر في أحوال الناس ورأينا تلك الوجوه السقيمة، والأجسام المشوهة، والأعضاء البتراء، ورأينا ذوي العاهات الاخلاقيـة الذين يُنزلون في المجتمع المصائب والاوصاب ويظلون عالة عليهِ طول حياتهم ، اذا رأينا ذلك أدركنا ضرورة الموت وعرفنا فيهِ محسناً كريماً

ثم ، اي اسم غير اسمهِ يخفف من حزن الحزين ، واي خيال غير خياله يلطف من يأس الآيس ؟

عائدة تتذكّر ...

أيهذا المارّ أمام معاهد التعليم ، ما أجهلك بما وراء الجدران من متزاحم العواطف ومتضارب الانفعالات ! هناك هيئة اجتماعية صغيرة . والعمر الذي تحسبهُ أليف الصفاء والغفلة والهناء انما هو كالشباب والكهولة والشيخوخة أسير حمّى الحياة . هناك جميع صنوف الناس : المتيمّن والمتطيّر ، المفكّر والاحمق ، الشجاع والجبان ، الرصين والطائش ، الشخصية الممتازة والشخصية العادية ، النفس الأبية الشماء والنفس الدعيّة المتبذّلة . وما الطفولة الا مقدمة قد يكفي ان تطالعها أحياناً لتلمّ الماماً سريعاً بما ضمنهُ الكتاب من تفصيل وإسهاب

كانت عائدة ذات طبيعة غنية خصبة . تحبُّ الجري واللعب والضحك — اي بنية لا تحب ذلك ؟ — وتبتكر للهو أساليب طريفة ترفعها في تقدير رفيقاتها . ولكنها

كانت وحيدة الروح . وكثيراً ما تنزح عن ميدان اللعب الى الحجر المنفرد في أطراف الساحة ، فتجلس هناك ناظرة الى البحر البعيد ، الى زرقته الفيحاء واستدارة الافق المخيم عليها ، متمتّعةً بجمال الطبيعة ومتهيبةً إزاء روعتها جميعاً . فترى السفن ، وقد تضاءلت بشاسع المسافة ، مارة في تلك الزُرقة القصية بكياسة ورشاقة ، تترك وراءها خطاً أبيض طويلاً لا تعرُّج فيه . عندئذٍ تُمعن عائدة في تفحُّص ذلك الخط المستقيم ، كأنما هي تقابلُ بينهُ وبين خطٍّ آخر رسمهُ في داخلها مرور سفينة من سفن أحلامها شقَّت أمواه نفسها العميقة

كانت تحسنُ ركوب الخيل على حداثة سنها ، وقد قطعت على ظهر الجواد سهولاً وجبالاً نبضت حياةُ التاريخ تحت الارض منها ، وبين الاشجار ، وعلى الصخور وحول القمم . ما شهدت جلال الطبيعة إلاَّ عادت اليها تلك الذكريات مع صدى الاغاني الوجدانية التي ينشدها أهل المضارب في الظلام فتثير بين ستائر الخيام أنة جزع

وغرام . والآن امام البحر ها هي شجية تتذكر ، فتنشد من الالحان البدوية ما تهتز لهُ أوتار قلبها

* * *

تكوَّنت بينها وبين احدى الراهبات ، على مرور الايام ، صداقة حارة نقية تنشأ أحياناً بين النساء الجامعات بين غزارة العواطف وحدّة الذكاء — ولعل تلك الراهبة كانت وحيدة بين الراهبات وحدة عائدة بين التلميذات

لم تكن الاخت أوجني من معلمات عائدة ، فهذه من بنات « الداخلية » ، والاخت أوجني تتولّى تدريس أصغر الصفوف في « الخارجية » ، وليس بين المدرستين غير الصلة الحجرية لانهما في طرفين متباعدين من بناء الدير الواحد . فكانت الفتاة تقول لنفسها « لو كانت هي معلمتي لتفوَّقت في صفّي ارضاء لها ، بدلاً من ان أُرغَم الآن على العمل تحت مراقبة راهبة لا أحبها وان قالت لنا الرئيسة انها حفيدة مارشال فرنسوي . ما أقل اهتمامي بكَ وبحفيدتك

أيها المارشال العظيم ! وكم يسؤني ان أطيع حفيدتك ، أيها المارشال العظيم ! وكم اكره الواجب لان حفيدتك تدعو اليه ، أيها المارشال العظيم ! ما أجهل الناس بأساليب الاخضاع والتعليم ! اذا كان وجه الطاعة والواجب عابساً ، كما يقولون ، ألا فلتأتِ الدعوة اليهما من أصوات نعزّ منها الوجوه في حالتيّ البشاشة والقطوب ... »

لم تكن عائدة في سنّ او في درجة عقلية تستطيع معها الافصاح عن رغبتها بمثل هذا الكلام . وانما ذلك ما كان يخالج ضميرها . والتعبير عن الشعور ان لم يبرز بياناً منسّقاً واضحاً فقد برز زفيراً حاراً . لذلك كانت الصغيرة تصغي الى صوت فؤادها وتتنهّد

قلّ ما اجتمعت الصديقتان في غير الكنيسة حيث تحتشد عشرات الراهبات ومئات التلميذات من داخليات « پانسيونر » ، وبنات الميتم ، وبنات المشغل ، وبنات التفصيل . فتدخل كل جماعة في الوقت المعين وتجلس في مكانها تحت رقابة المعلمات . وعند انتهاء الصلاة تنصرف

كلّ جماعةٍ في دورها فلا يختلط الفتيات، ولا يتحاذين، وان تلاقين صدفة فلا يتخاطبن. يعشن غريبان في دير واحد لان هيئتهنّ ... الهيئة الاجتماعية بما بين أعضائها من فروق المراتب

وقد تلتقي الصديقتان صدفة في الحديقة او في أحد الممرّات فتتبادلان الاخبار بسرعة بينما العيون تتحدّث بلغتها المختلفة. غير ان عائدة لم تكن لتقنع بهذه اللحظات النادرة. فتتحيّن الفرص لتذهب خلال نزهة الظهر، ولو دقائق، الى الجناح الآخر من الدير وتدخل على الاخت أوجني وهي تطرّز وحدها في المدرسة منتظرة وصول تلاميذها وتلميذاتها

ما أخطر هذه المجازفة وأعظم هذه الجرأة! ولكن الفتاة كانت تُكافأ اذ ترى امارات السرور على وجه الراهبة وتسمعها قائلة «انظري اليّ، يا عائدة!» ثم تقول «يجب ان تتعلمي الخضوع للقانون وألاّ تعودي الى مثل هذه «الفلتات». والآن استودعك الله؛ اذهبي يا ابنتي،

اذهبي يا صغيرتي ولا تنسيني ! »

يا ابنتي ، يا صغيرتي ـ بمثل هذا تنادي الراهبات جميع التلميذات . ولكنهُ من فم الاخت أوجني نشيد سماوي يظلُّ صداهُ متردداً في جنان عائدة

* * *

جدَّدت هذه « الفلتة » اللذيذة يوماً ووقفت عند عتبة الراهبة وهي تلهثُ تعباً واضطراباً . ربّاه ! ماذا ترى في هذه الغرفة وماذا تسمع ! بين ذراعيّ صديقتها فتاة تقريباً من عمرها هي عائدة . الفتاة تبكي والراهبة تؤاسيها بصوتٍ شفيق قائلة : « لا تبكي يا ابنتي ، لا تبكي يا صغيرتي ! »

لم تلمح هذا المشهد حتى انقلبت راجعةً من حيثُ أتت . سمعت الفتيات في الخارج يتحسَّرن على هند « لان أمها ماتت » . ففهمت وقالت « مسكينة هند » . ولكن شفقتها كانت سطحية لاستيائها من هند المجهولة هذه التي أخذت مكانها ؛ والنداء الذي يجب ان تنادى به

وحدها - الاخت أوجني هي ! هي ! تستعمله لتعزية الفتاة الغريبة . . .

آه من خيانة البشر ! آه ما أضيق الحياة ! ما اثقل جدران هذا الدير وأرهب ظلّها المنعكس على ساحة اللعب مختلطاً بظلّ الاشجار الكبيرة ! وتبًّا لهذه الاشجار فقد مشت الأخت أوجني - الخائنة ! - تحتها ! وتلك الفروض التي يجب ان تُكتب ! وتلك الدروس التي يجب ان تُستظهر ! ما أطيب الموت ! أين أنت أيها الموت ؟

مسكينة عائدة ! كانت قوية الشعور فطرةً وقد ساعدت تربيتها الاولية على تقوية عواطفها وإرهافها ، ولم يكن لديها العقل اللاجم ولا الخبرة الحكيمة . وكم من امرأة تقضي عمرها على هذه الحال فتشقى وتُشقي وهي لا تدري انها مريضة في اعصابها ، وان نسبت ذلك الى الرقّة . نعم ، الحياة تافهة ان لم يبهجها نور الحب ويعظّمها سناء الفكر ، ولكنّ بين هاتين القوتين الجليلتين وسخافة الغيرة بوناً شاسعاً

وصارت عائدة توجّه الى الراهبة كلَّ كلمة حواها كتابُ الصلوة في هجو الشيطان واحتقارهِ . وتلخَّصت معاملتها لها في اظهار الاستياء والاستنكاف الى درجة المبالغة . وكلما أبدت الصديقة الكبيرة أَلماً زادت الصغيرة الشريرة تعذيباً

***

تكاد حيوية الشر تتغلب على حيوية الخير. ولكن القلب الوفي لا يفتأُ يلتمس من المحبة غذاءً ودواءً . لذلك أفرغ قلب عائدة الكره في أسابيع وأخذت تتسرَّب اليه الكآبة

أخذت تكتئب لا سيما وقد دنا عيد الميلاد وأسرعت ايام العام الاخيرة نحو هوّة العدم . يخيل ان هذه المواسم اعلام العمر او محطات على خطّ الرحلة منه . فتحتاج القلوب الى مضاعفة المحبة والصداقة والعطف والتبحر ، بينما قلوب اخرى تلهو بالرقص واللعب والانشاد وما شاكلها من امور خارجية

وكانت تكتئب لان رفيقاتها الصغيرات أخذن

يغادرن الدير ليصرفن الاسبوع بين اهلهن المقيمين في المدينة أو في ضواحيها . وعائدة من بلدةٍ بعيدةٍ كلَّ البعد ، لذلك لا يزورها من ذويها في العيد أحد . وستقضي هذه الايام وحدها بين اولئـك النسوة الصائمات ، المصليات ، الزاهدات ، اللاني كانت تشعر بأن منهنَّ غير السعيدات رغم امتثالهنّ الظاهري ؛ فتودّع رفيقاتها الواحدة بعـد الأخرى متمنية لهن عيـداً سعيداً . حتى اذا مضت اخراهنَّ انطلقت الى الكنيسة وحجبت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء . واذا بصوتٍ مألوفٍ يهمس في أُذنها : « تعالي يا عائدة . فقد سمحت الام الرئيسة أن اشترك واياك مع الاخت حنة في تهيئة المذود »

فانتصبت الفتاة وفرَّت هاربة الى حيث لا يُعثر عليها ، وشهقت متفجعة تقول « اواه ! انها تشفق عليَّ ، انهنَّ يشفقنَ عليَّ ! ربي ، ترى ايهما أمرّ أخيانة البشر أم شفقتهم ؟ »

* * *

وكان مساء العيد حزيناً ، وجوه مكفهرًا ، والدير صامتاً ، كتوماً ، مرمرياً كالمقابر القديمة يضن بخفاياه . وكان لعائدة يومئذٍ ان تفعل ما شاءت دون قانون يقيدها فتقضي أكثر أوقاتها في غرفة الموسيقى المنفردة في أطراف الحديقة تخيم عليها الاشجار ذات الغصون العارية

هناك جلست طويلاً والسماء تمطر رذاذاً ، ثم نهضت الى البيانو وما كادت تمس أصابع العاج حتى سحبت يدها قائلة « ما أشد برد البيانو ! » ثم أضافت « بل البرد في يدي ، البرد في روحي ، البرد في وحدتي وغربتي ! اني جليد ولكني جليد يتعذب ، واشعر بان كل ما في هذا الدير جليد حيٌّ ينبضُ ويتعذَّب ويبكي ! »

ألقت برأسها الى خشب الآلة الموسيقية . على ان يداً لطيفة اجتذبتها مداعبة شعرها وخدّها . فصرخت الفتاة قائلة « اتركيني ! لا أريد ان يشفق عليَّ أحد لاني لا أطلب الشفقة ! »

فقالت الاخت أوجني « واذا طلبتُ أنا شفقتك

أتضنّين بها ؟ » وتابعت بصوت خافت مملوءٍ بتعنيفٍ عذب « ألم تفكري فيّ كل هذه المدة ؟ ألا تحتاجين اليّ في هذه الايام مثلما احتاج اليك ؟ »

وبدلاً من ان تبكي عائدة على خشب البيانو البارد الصلب ، أخذت تبكي على صدرٍ ليّنٍ دافىء عُلّق عليهِ الصليب الفضيّ رمز التضحية والامتثال ، واكتساب الحياة بالموت الاختياري . .

* * *

رأيتُ عائدة اليومِ في احد المخازن امام مذودٍ نام فيه تمثال الطفل تحيطُ به رموز عيد الميلاد المختلفة . فقلت « أتذكرين أيام المدرسة يا صديقتي ؟ » فاجابت « أذكرها على الدوام » . وأخذت تفكر في شيء بعيد . فحدَّقتُ في عينيها ، وخيل اليّ اني أرى هناك رسم ابنة اثنتي عشرة سنة اتكأت على صدرٍ عُلِّق عليه الصليب ، وقد انحنى على وجه الفتاة الباكية وجه الراهبة الحزين

فقلت « أتذكرين الاخت اوجني احياناً ؟ » . فاشارت

بالايجاب . قلت « حتى بعد مرور أربع عشرة سنة تشجيك تلك الذكريات الصبيانية ؟ »

فلزمت عائدة الصمت وقد بدا وجهها مهيباً ، ثم قالت « ذكريات صبيانية ؟ وهل نحن الآن غير أطفال ؟ وهل الشباب والكهولة والشيخوخة سوى مظاهر أخرى من الحياة الدائمة الطفولة ؟ ما مرَّ بي يوم إلاّ زدتُ اعتقاداً ان ما نراه ، ونشعر به ، ونختبره في الحداثة انما هو هو ما نشهده متتابعاً من عام الى عام ، ولكن بصورة اكبر ، في ميدان العالم الوسيع »

حكاية السيدة التي لها حكاية

لكلٍ من الناس حكاية أوّلية يتناقلها الاقارب والأباعد بلهجاتهم المتعددة ويفهمونها بعقلياتهم المختلفة، وينسجون حولها حكايات كثيرات. يسردُ الواحد «الحكاية» الاولية عن ذبيحته في تلك الساعة ثم يزيد قائلاً وله معي أنا أيضاً «فصل»، وله مع زميلي «عبارة»، وله مع الآخر «طابق» الخ. ويجود بهذا الطابق والفصل والعبارة شارحاً متبسطاً منمناً مزخرفاً. ويصغي الآخرون متعجبين متأففين، ويتعوّذون بالله العليّ العظيم، وينكتون ويتهكمون كأنهم لم يأتوا همُ ولم يأتِ بشرٌ قبلهم شيئاً شبيهاً لما يسمعون. وبدهيٌّ انهم في تطبيق الاحكام على سواهم لا يراعون قانوناً مرناً يستعملونهُ في الحكم على نفوسهم. والقاعدة الذهبية القائلة بحبِّ القريب ومعاملة الآخرين بمثل ما يودُّ المرء أن يُعامَل، لا تزال قاعدة ذهبية... فحسبُ

لا يراعي الناسُ في حكمهم على الآخرين ما يجيزونه لأنفسهم وإنما يحكمون وفقاً لنصوصٍ صابة جُمعت في الجدول الاخلاقي الذي يتسلحون به أمام بعضهم بعضاً. فاذا ما طرِحت العيوب في سوق المزايدة - هي مزايدة لا تقبل المناقصة مطلقاً - عمد المتحدثون الذين صار كلٌّ منهم في ذلك الموقف باراً صفياً وقديساً مفضالاً، عمدوا الى ذلك الجدول الصارم كوجه الجلاَّد. وكما ان جدول الحساب الذي وضعهُ فيثاغورس اليوناني هو جدول ضرب كذلك كان الجدول الاخلاقي لمساوىء العباد والحكم عليها، جدول ضربٍ تعالت أرقامهُ الشريفة عن كل طرحٍ شائن!

* * *

كثيراً ما كنتُ التقي بالسيدة . غ . ب . في اماكن مختلفة : في الكنيسة، والحفلات الموسيقية (كونسرت)، والمخازن الكبرى؛ وكان يندر أن أسير في شوارع حيّ الاسماعيلية كشارع قصر النيل، وعماد الدين، والمغربي،

والمدابغ ، وسليمان باشا دون أن أراها مارةً كأنها تقطن هـذه الجهات أو قريباً منها . فاذا كنتُ مع صاحبةٍ أو رفيقة لُفظت بيننا تلك الكلمة التي يتبادلهـا النساء ـ والرجال أيضاً ، مع احترامي لسادتنا الاجلاء ـ لدى مرور سيدة ذات ميزة ما . تلك الكلمة هي « انظري ! انظر ! » ولتلك السيدة غير ميزة فهي معروفة بجمال الصوت وقد سمعتُها في حفلتين اثنتين . وهي أنيقـة الهندام تتزيا باحدث الازياء ، بل هي من السابقات الى ترويج الازياء الحديثة في القاهرة . ويقولون انها حسناء

كنتُ أشاهدها عن بعدٍ فيستلفتني اليها ذلك الشيء الخاص في كل انسان وليس هو الهنـدام ، ولا ملامح الوجه ، ولا الحركة ، ولا السكوت ولكنهُ شيء مبهم يختلف باختلاف الاشخاص . ويزعم بعض أهل الفراسة ان مقرّه بين العينين ؛ ويدعي غيرهم انهُ في انسان العين ، أو حول الفم ، أو في خطوط الشفاه ، أو في ارتكاز الذقن . وأنا لا أعلم سوى انه موجود وانه المكوّن الاكبر

لما نسمّيه « معنى » الشخص . وهو عند بعضهم قويٌّ ، شديد التأثير ، يلتصق بنفس الرائي فلا يعود ينسى ذلك « المعنى » ولا ينسى حامله

بعد كلمة « انظر ! انظري ! » لا بد من « حكاية » عن موضوع النظر . وهكذا سمعتُ عن تلك السيدة حكايات جمّة جعلتني كثيرة التفكير فيها أسائل « معناها » الباقي في نفسي ماذا عليّ ان اصدق من كلّ ما قيل ويُقال . ويزيد اهتمامي بها بتراكم الحكايات عنها ، كأني ذلك الرجل الذي تعرّف الى أحدِ المشاهير وقال « سمعتهم يذمّونك فشاقني التعرف بهولك »

عيناها كانتا أعاق الاشياء بحافظتي . هما عينان متغيرتان تظهران مرةً عينيّ امرأة وجيعة صابرة وحيناً تفكران معرضتين عن جميع مظاهر الحياة . ويوماً تكنّان نظرةً لا قرار لها ، وتخترقان الاشياء الى فضاءٍ يحيطُ بها ، كأنهما ترقبان في الهواء اشارات يدٍ غير منظورة . وطوراً تبدوان كعينيّ الشخص الاجتماعي الذي يتمتع بافراح

عادية ويكتفي بها غير متخيّل وجود ما يفضلها. ثم تتألّقان سعيدتين كأنّ الحياة أشبعتهما مسرات لطيفة هادئة وحقّقت منهما بعيد الاماني. إلا اني كنتُ أحبّهما عند ما تذبلان وينطفىء نورهما كأن صاحبتهما شاخت في أسبوعين خمسين عاماً. ثم التقي بها مرةً أخرى فأحسبها في ثوبها الوردي، وبرنيطتها المرفرفة على وجهها، طفلةً تنتظرُ من الوجود جميع صنوف الهناء

* * *

أقامت يوماً نخبة غواةٍ حفلة موسيقية في قاعة الاعياد الكبرى بفندق شبرد. وقد اشرف على تنظيمها استاذان شهيران هما السيدة ك. أقدر معلّمة بين الاجنبيات المتعاطيات تدريس فن الغناء، ولها في منزلها اجتماعات حافلة بأجمل أصوات القاهرة من نساءٍ ورجال درسوا عليها والتفوا حولها. والسنيور ف. الذي يقطن هذه المدينة منذ أعوام وقد كثر تلاميذهُ وتلميذاته من مختلف الجاليات، وتزايد عدد أصدقائه والمعجبين به الذين يرون معجزاته

على البيانو متجددةً كل يوم ، مدهشةً كل مرة

في تلك الحفلة غنّت السيدة التي لها حكاية الاّ اني لم أجد من يحدثني عنها ، ربما لان أكثر الحضور من أهل الغواة . فكلما عزف عازف او انشدت منشدة زفّ الجمعُ التهاني الى ذويه وذويها ليضمنوا بذلك تهانيء تزفّ اليهم عند ما يغني أولادهم ويعزفون . تلك المرأة لم يكن لها اهل ، ومع ذلك فقد أحدث انشادها تأثيراً كبيراً وأثار تصفيقاً حاداً لم تكن تقابلهُ هي بغير السكون . وقد اطلّ من عينيها لهيبٌ قاتم عميق وارتدت ملامحها هيئةً آمرة تبعدها عن الشباب والشيخوخة معاً ، وتجعلها شبيهة بالتماثيل التي لا تتغير شاراتها وتظلُّ في اوضاعها ثابتة على الدوام

فكرت فيها طويلاً ذلك المساء ، وانفتُ من كلّ ما سمعتُ عنها رواية كئيبة فقلت لنفسي « يا للخسارة ! لماذا تتجاهل هذه المرأة ذاتها ؟ لماذا لا تنسى انها حسناء فترتفع الى القمة التي أراها أهلاً لبلوغها ؟ »

وفي الغد جاء السنيور ف . ليعطيني درسي الموسيقي

ولكن بدلاً من أن يأتي في الساعة الحادية عشرة ، وهي الوقت المعيّن ، جاء قبل الظهر بعشر دقائق . دخل يفرك يديه وعيناه تلمعان وراء زجاجتيّ نظارته . فتذمرت وقلتُ « انك لا تبالي بوقتي يا استاذ . لقد أتلفت صباحي ، بل نهاري كله ! » فضحك ضحكة ابتدأت في قرارٍ معتدل وانتهت في ما يشبهُ زقزقة الطيور وقال : « أنا لستُ استاذ رياضيات لألزم بالمجيء في الوقت المعين » . وفرك يديه من جديد ليستشهد بالمثل الفرنسوي القائل « بعض التشويش ضروري لتجميل الفنّ » . قلت « ولكن وقتي . . . » فقاطع قائلا « الدرس ، الدرس » وسمع الجيران مدة ساعة طويلة تلك الضوضاء الخاصة التي يحدثها التمرين والمراجعة في حضرة المعلم

ولما انقضت الساعة بإجهاد وسلام طلبت حقّي . والسنيور ف . يعزف لتلاميذه القطعة التي يطلبونها اذا كان راضياً عنهم . وحقي الذي طلبته يومئذٍ قطعة موسيقى روسية كان قد عزفها في حفلة اليوم السابق

* * *

فجلس الى البيانو وقبل أن يبدأ تكلمنا عن «الكونسرت» وتبادلنا الآراء في أصوات المنشدين والمنشدات حتى وصلنا الى ذات الحكاية . فسألته « أهي من تلاميذك ؟ »

أجاب « كلاَّ ولكنها من تلميذات السيدة ك . وقد اجتمعتُ بها عندها غير مرة »

قلت « أسمعهم يلقبونها تارة بالمدام وطوراً بالمدموازيل، أمتزوجة هي أم عزباء ؟ »

فتنهد وقال « يا لها من امرأة مسكينة ! »

فقلت « وهل من ظروف حياتها ما يحرّك الشفقة الى هذه الدرجة ؟ »

فقال « ومَن ذا الذي لا يشفق على امرأة جمعت بين الحسن والذكاء والصلاح وهيأتها الطبيعة لتسعد وتسعد فلم يكن نصيبها الا الشقاء ؟ »

قلت « أي شقاء تعني ؟ »

قال « كيف ؟ ألا تعرفين حكايتها ؟ »

قلت « أعرف عنها نتفاً مبعثرة . ومن ذا الذي يستطيع أن يرسم لحياة امرئ صورة جلية من كلام الناس ؟ »

فتنهد مرة أخرى ،وجرت أنامله بسرعة على السلم الموسيقي كأنه يسرح شيئاً من أسفه أو يبحث عن أسلوب جديد لحكاية قديمة . ثم غشت نظره سحابة وقال « كان والد هذه الفتاة قاضياً في المحاكم المختلطة وهو على جانب كبير من العلم والذكاء ، فعلّم ابنته وثقّفها أحسن تثقيف . ولما جاء وقت الزواج جرى لها ما يجري لفتيات كثيرات ، أي أن والديها انتقيا لها خطيباً أجنبياً مثلها رأيا فيه ما يُعلق مطالبهما الاجتماعية . وكان على الخاطب مسحة من الجمال فلم تعارض . ورضيت كما ترضى الكثيرات من اخواتها ليفرحن بالأثواب، والأساور والحرية المنتظرة . فتزوجت في عرس فخم دُعي اليه أعيان الجاليات الاوربية . ولم يكنْ حتى استولى الزوج على البائنة المتفق عليها »

وقف الاستاذ عن الكلام وقد بدت على وجهه سيماء الخجل والرحمة والاحتقار جميعاً . ثم قال بعد سكوت قصير

« كم أشقت المرأة من رجلٍ ، وكم مزّقت من شملٍ ، وكم كسرت من قلبٍ ! ولكن مسكينة هي عندما لا تكون شريرة ! مهما علت في عين نفسها ، ومهما تحررت من قيودها ، ومهما بالغت المناديات بحقوقها في رفعها الى مستوى الرجل فان حياتها ، كلَّ حياتها ، تظلُّ في قبضة هذا الرجل الذي تزعم انها مثيلتهُ وما هي في الواقع سوى ما يريد هو أن تكون . فاذا كان حرًّا نبيلاً جعلها حرّةً نبيلة ، وان كان ذليلا حقيراً حقّرها وأذلها . فهي ألعوبته ، وهي عبدته ، وهي الشيء الذي يتصرف به في سائر الأحوال . وبعض ذوي الضمائر من الرجال تروعهم هذه السلطة على المرأة ، وهذه القدرة التي تهزأ بتقلُّب السياسة والاجتماع لأنها أقوى من الاجتماع والسياسة وأمكن باستنادها على الطبيعة نفسها . فيحجمون عن الزواج خوفاً من نفوسهم »

ضايقتني هذه التعليقات على أهميتها لاني كنتُ أرغب في استماع البقية ، فقلت « ثم ماذا جرى ؟ »

قال « جرى ان ذلك المتحذلق كان مقترناً سرًّا بامرأة

اخرى ، وكان يحتاج الى نقود فكان الزواج اسهل وسيلة للفوز بحاجته . وبعد ثلاثة أسابيع اختفى »

— « وكيف اختفى ؟ »

— « خرج من منزله ولم يعد . فجنّت زوجتهُ في الايام الاولى اذ ظنت انهُ قُتِل . ومرّت الاسابيع فشاع خبر سفره مع زوجته الاولى . فارسلوا يبحثون عنه في بلده بايطاليا — وهنا غصَّ السنيور ف . بريقهِ لانه ايطالي — ولكن ذهبت اتعاب البوليس سدىً ، ولم يجدوا له أثراً لا في ايطاليا ولا في غيرها من بلاد الغرب . ولم يطل حتى توفي والد هذه المرأة التي غُدرت في شبابها ، وفي حبها ، وفي مالها ، وفي مركزها . فامست وحيدة فقيرة ، والكنيسة لا تحلُّ زواجها لان الرجل لم يكن مرتبطاً مع زوجته الاولى بزواج كنسيّ بل كان زواجه اتفاقياً فقط . القانون يعاقب على هذا ولكن كيف يصل القانون الى من ضاع في المجهول ؟ ولو كسرت الكنيسة زواج المرأة لظلَّ الناس في ريبة من أمرها ، لأن المظلوم أكثر تعرضاً للشبهات والتخمين من الظالم ، لا سيما اذا كان

المظلوم امرأة والظالم رجلاً . لذلك ترين الناس يؤولون كل حركة تأتيها لأنها حلَت على ألسنتهم وصارت لافواههم مضغة سائغة . ولو قضت أيامها بالصوم والصلاة والتقشف لما أنصفوها . ومهما نقدتهم الثمن غالياً فلا يبيعونها ذلك الاعتبار الوهمي الذي يتزلّفون به لدى أهـل الجاه والثروة والسلطان ، أو لدى من اتقن « البلف » عليهم . فأي غاية لهذه المرأة من الحياة ؟ لا هي طليقـة تتصرف بايامها ولا هي مقيّـدة تجد في تحطيم قيودها تعزية وسلوى . هذه حياة بتراء أشـقاها الرجل كما بتر وأشـقى مثلها وقبلها كثيرات . . . »

قلتُ « ولكن كيف لم تشعر هي خلال الخطبـة انه يخادعها ؟ »

قال « لا أدري كيف لم تفهم هي ولم يلمح أهلها شيئاً من ذلك »

قلت « لعلّه تزوجها مخلصاً الا انه ظلّ يفكر في تلك التي ربما كانت على جمال عظيم »

قال « يقول الذين يعرفونها انها عجوز شمطاء ويتعجبون كيف يرضى بها هذا المتوقد المتأنق جارية » . ثم أطرق قليلاً وقال « ولكن ليس للشباب والجمال دخل في هـذه المسائل . الجمال يُبحث عنه في الصالون ، والمرسح ، والاجتماع ، والشارع ، والمرأة المليحة تجذب النظر عادةً أكثر ممّـن كانت أقلّ ملاحة . على أن تأثيرها لا يتعدّى ذلك والتاريخ شاهد على قولي . وأقرب شواهد التاريخ نجدها في وليّ عهد النمسا الذي نشبت الحرب اثر مقتله ، وهو الذي أعرض عن جميع الارشيدوقات النمساويات الباهرات الجمال ، وعن جميع الاميرات في الدول المالكة ، وتنازل عن العرش والتاج غير مرة ليتزوَّج بمن هي أقلّ النساء ظرفاً وحسناً . وهي الكونتس دي شوتاك وصيفة إحدى قريباته ، التي صارت بعـد زواجهما الدوقة دي هوهنبرج وقد قُتلت معهُ في مفجّعة سراجيفو »

وعدَّل السنيور ف . جلوسه وأخـذ يعزف قطعةً

حماسيةً حزينة من وضع بتهوفن وهي « مارش جنازة البطل »
(Marcia funebre d'un croe)

***

رأيتُ البارحة ، في حديقة بضواحي القاهرة ، السيدة ذات الحكاية . فهمتُ الآن لماذا يتغير معنى عينيها ؛ ولئن لم أدرك بعد تماماً ماذا تعني كلمة « حياة بتراء » فاني أُدرك ان الحياة تهيء لبعضهم ظروفاً لم يحلموا بها ، ولو حلموا لتلافوها مشياً على الاشواك والجمرات . وعلمتُ أن في ذلك القوام المعتدل ، وفي ذلك الهيكل الذي يمثّل القوة والانفة قلباً ، قد يكون جرحهُ الحبُّ الصادق يوماً إلا أنه اليوم يعذبهُ سرطان تتمدّد منه الاصول في جميع نواحيه ، ذلك السرطان العريق الذي لا يقتلع : احتقار الحياة وعدم الثقة بالناس

ساعة مع عيلة غريبة

الاشخاص

متاتياس — مالي من رجال البورصة

أغاني — زوجته يونانية الاصل تظهر اللكنة الاعجمية في لفظها

مدام سالم — اخته الكبرى ضيفة عنده مع زوجها

الدكتور سالم — صهر متاتياس

سميحة — أخت متاتياس الصغرى . عزباء تسكن معه . وقد توفيت والدة هؤلاء الاخوة الثلاثة على أثر ولادة سميحه

شفيق — طالب في مدرسة الحقوق . أديب وموسيقي . أخو متاتياس لابيه وقد توفيت والدته كذلك بعد وفاة أبيه . يصغر سميحه بعامين أو أكثر قليلاً

المـكان

منزل فخم في رمل الاسكندرية

الوقت

بعيد الساعة التاسعة صباحاً

متاتياس — (جالس أمام المائدة يتناول طعام الفطور والى يمينه زوجته ، والى شماله شقيقتاه مدام سالم وسميحة . يتحادثون عن أشياء عادية كالمغص الذي تألم منه الولد ، والخصام بين الخدم ، والخسر على طاولة البكارا البارحة ، وكم ربح الجيران من مدخول البوكر في الشهر المنصرم الخ . يدخل شفيق بلا تسرُّع ويجلس بهدوء في مكانه قرب سميحه . متاتياس يرقبهُ بشيء من الاستياء ثم يتنحنح ليجلو صوته ولينذر السامعين بأنه سيقول شيئاً خطيراً . مخاطباً شفيق :) صحّ النوم !

شفيق — (بعد سكوت قصير) : لم أكن نائماً ، أنا آتٍ من حمّام البحر

متاتياس — من حمّام البحر ؟ اذاً هـذه الليلة لم تنم كعادتك ؟ (شفيق يصب القهوة في فنجانه مُعرضاً) اذاً تريد

أن تنتحر انتحاراً ؟ أتظنّ اني سأحتمل هذا طويلاً دون أن أدعك تشعر بأن لك من يسيطر عليك ؟ في الليل بدلاً من ان تفعل كسائر الخلائق فتسهر في تياترو أو في سينما ...

شفيق — (مقاطعاً بأدب) : وهل من شروط الخليقة ان تسهر (مفخّماً اللفظة) الخلائق في تياترو أو في سينما ؟

متاتياس — (دون أن يلتفت لمقاطعته) ... أو معنا نحن أهلك فانك تذهب الى مجتمعات الدعوى ، والكلام الفارغ ، والعقول المرقّعة التي تسمّيها اندية الأدب والمناقشة والخطابة (أغابي ومدام سالم يتبادلان اشارة أسف وتتنهدان عالياً جداً) وتعود بعد نصف الليل الى كتبك الشيطانية كأنّ نور النهار لا يكفي لاضعاف بصرك واتلاف صحتك وتقصير حياتك ...

اغابي — (تتنهد مرة اخرى) : يا سلام !

متاتياس — (ينظر اليها شزراً لجرأتها على مقاطعته . ويتابع متغيظاً :) كانت غرفتك منارة عند الساعة الثالثة فمتى نمتَ ومتى استيقظت ؟ ألا تعلم ان الكتب لم يتاجر بها متاجرٌ

الاّ وجنته ، جنته وأفقرته ؟ أتريد أن تعيش مستعطياً ذليلاً ؟ ألسنا نحن أفضل من هذه الوريقات عدة ابليس ؟ أليس مجلسنا أهلاً لك حتى تقضي الساعات مسجوناً في غرفتك ، وعند ما تخرج الينا لا تعطينا غير الدقائق التي تقضيها على المائدة ؟ أهكذا يصطاف الناس ، أهكذا يتنزّهون ويعيشون ؟ أتعلم ان امرك صار يشغلني الى درجة القلق ؟ ساعدك الله على حياتك كيف تكون !

شفيق — (يحرّك السكر في فنجانه بهدوء ويحتمل هذه الوعظة بتجلد من اعتاد سماعها . يتكلم بأدب ورصانة) : يسوءني أن أكون سبباً لازعاجك . ولكني لا أستطيع تغيير فطرتي . ثق بأني لن أفعل ما يؤذيني بل أتمتع بحريتي باعتدال . أحب ان أشعر بأني حرّ مطلق الحرية

مدام سالم — (تشهق متعمّلةً التعجب والغيظ) : أخوك يريد خيرك وينصحك وانت تقول له « انا حرّ » ؟ نجّنا يا الله من أولاد الجيل الجديد دا !

أغابي — دا ايه دا يا شفيق ؟ انت تبقى حرّ ازّاي ؟

شفيق — (متأملاً في ذكائه لمناقشة هذه الرؤوس الخاوية) :
ها قد ابتلينا بموضوع جديد ! وهل كلمة « أنا حرّ » ، هذه الكلمة التي تُثبتُ وجود الانسان امام الوجود ؛ هل هي أثيمة الى هذا الحد ؟ إنّ لي ذوقي وميولي ومطالبي ورغباتي وكلها تختلف عن ذوق اخي وميوله ومطالبه ورغباته . لا يعني هذا اني أفضله او انه يفضلني . كلٌّ طبيعة حسنة منسجمة في ذاتها. ولكنه عندما ينصحني ويعنفني يقدّر أني مثلهُ تماماً، ويجرّدني من نفسي ، ولا يتصوَّر أني أختلف عنه كل الاختلاف . فحبذا لو تفاهمنا مرة واحدة ووضعنا حداً لمثل هذه المناقشات . لكلٍّ منّا فطرته وحريته ؛ ولي حريتي وأريد أن أتمتع بها

مدام سالم — (وقد طفح كيل تعجبها) : يا ابني دا اخوك . يكبرك بعشرين سنة . دا رباك زيّ أبوك . دا هوّ احتضنك ورباك . وانت مخطىء تتبع سبل الضلال ، ولما يجي ينصحك تقوم انت تتجاسر تقول له « أنا حر »

شفيق — (متتبعاً باهتمام تجنّي هذا المنطق الاعوج) :

مَن يسمعكِ قائلة اني أسير في « سبل الضلال » يحسب اني . . . (يصمت فجأة اذ يأنف متابعة جدال كهذا ، ثم يقول بشيء من المرارة) تلومونني لاني لا أطيل الجلوس معكم ، وهل من عجبٍ وكل جلسة كهذه الجلسة ؟

متاتياس — (يتنحنح كعادته ليقول شيئاً خطيراً) : وكم دفعت ثمن الارغن الذي جئتَ به البارحة ؟

شفيق — (بتأدب) : هذا امر لا يعني غيري

متاتياس — (يغضب حقيقة هذه المرة :) شؤونك المالية لا تعنيني ؟

شفيق — (ينجح في ان يكون هادئاً كالاول) : انها لا تعني غيري في هذا الموقف لاني ابتعتُ الارغن بما توفر لديَّ من مصروفاتي الشهرية . وانا حرّ في ان اشتري آلة موسيقية تسرني ولا تؤذي احداً

مدام سالم — هو « حرّ » من جديد . هو « حرّ » كل مرة

متاتياس — أنستَ مجنوناً ؟

شفيق — (يهزُّ كتفيه) : قد أكون مجنوناً لأني لستُ مثل . . .

متاتياس — (متمماً فكر شفيق) : مثلنا نحن ، أليس كذلك ؟ نحن عقلاء نعمل كجميع الناس ، ونجتمع بالوجهاء أمثالنا ، وألعابنا ومسراتنا معقولة معتبرة كما ان أشغالنا شريفة كثيرة الارباح . أما أنتَ فانظر الى ما تفعل واذكر من تعاشر . وأنا أريد أن اصلحك رحمةً بكَ وخوفاً على مستقبلك فتقبل نصحي كالمجنون الاحمق

شفيق — (بهدوء حزين) : حدّثني عن رحمتكَ . . . إني حتى الساعة لم ألمح خيالها . . .

متاتياس — (يتكلف الشفقة المتناهية) : وماذا ينفع الذكاء والدرس ان لم يقدهما النصحُ والرأي ؟ اعلم ، ايها المغرور ، انه كما قال الشاعر العربي (بفخامة وتأنٍّ في الالفاظ) « الرأي قبل شجاعة الشجعان »

(شفيق ينظر الى أخيه بعينين واسعتين دهشتين وفيهما خيال الضحك . فتهمس لهُ سميحة بسرعة : « لا تدهشنّكَ هذه الفصاحة

الفجائية ! هذا عنوان اعلان تجاري رآه في جريدة هـذا الصباح قرب أخبار البورصة » . هنا ينهض متاتياس بعظمةٍ تتبعه زوجته ومدام سالم ويتجهون نحو الباب. وعندما يصل متاتياس قرب أخيه يتهكم قائلا : « ابقَ على حريتك لنرى الى أين تقودك » ثم يخرجون وشفيق مهتم بملس الزبدة على كسرة خبز في يده . وبعد ان يبتعد وقع أقدامهم يجيل النظر فيما حوله فيرى انه وحده فيحمل فوطته ويلوّح بها في الفضاء كمن يطرد الذباب . فيسمعُ صوتاً يتكلم وراءه ويلتفت فيرى الدكتور سالم مشيراً نحو الشرفة حيث سميحة تسقي الازهار)

الدكتور سالم — (مخاطباً سميحة) : أتسمحين لي بفنجان قهوة صغير ؟

سميحة — اسمح بفنجان قهوة كبير (تدخل من الشرفة وتدنو من المائدة)

الدكتور — أشكر لكِ كرماً لن اتمتّع به . يجب أن أذهب الى المدينـة في الحال (مخاطباً شفيق) كيف الحال ، يا سي شفيق ؟

شفيق — في الحياة أمراض لا يداويها الطبّ ، يا دكتور

سميحة — (بعطف أكيد) : لقد أنهكوا قوى هذا الولد المسكين

الدكتور — (يشرب القهوة واقفاً) : كذا ؟ وأي ذنبٍ جديد جنيتَ ، يا كثير الذنوب ؟

شفيق — هو الذنب الاكبر الذي لا ينتهي . وهل ينتظرك في المدينة مريض ما ؟

الدكتور — : لا تغير الموضوع . اخبرني عن ذنبك الجديد

سميحة — سهر البارحة في النادي . وظلّت غرفتهُ منارةً حتى الساعة الثالثة صباحاً . وابتاع ارغناً . وقال انه « حرّ » . هذه قائمة الذنوب الجديدة

شفيق — (لا يلتفت اليها) : ذنبي الذي لا يغفر هو اني لست طفلاً . أريد ان افتكر بنفسي ، وأعمل لنفسي ، وأعتمد على نفسي . وهم يقذفون عليَّ بآرائهم ونصائحهم في كل حين.

وما هي قيمة الرأي يا ترى ان لم أطلبه انا ؟ وقد أطلبه واسمعه دون ان اتبعه . ثم اذا استشرت غيري كل خطوة فكيف اعرك الامور فأخطىء هنا، واصيب هناك ، وا كتسب من الفشل والنجاح اختباراً هو في الحقيقة ا كبر واقدر ما يقود المرء في هذه الحياة المتشعبة السبل ؟

الدكتور — الرأي حسن ، يا شفيق ، عندما تطلبهُ وتكون في حاجة اليهِ

شفيق — (متحمساً) : حسن في هذه الحال وقبيح في ما عداها . عندما اقصدكَ مستشفياً أعلم انك تستطيع شفائي فأذعن لاوامرك واقبل نصائحك . وعندما اسألت رأيك اعتبرك قادراً على وضع نفسك مكاني والشعور معي ، حقيقاً بأن تقودني في طريقٍ سلكتها واختبرتها قبلي . ولكن ما قيمة الرأي عند غير اهله ؟ كيف يرشدني في الموسيقى من لا يتقن الا النجارة ؟ كيف يصلح اغلاطي اللغوية من كان صحيحه مغلوطاً ؟ كيف يعلمني الصينية من لا يعرف عدد حروفها ؟ ثم كيف هو ينهاني عن قيادة زورق

حياتي كما اريد؟ عجباً! أألام لأني لا افضي لياليَّ حول الطاولة الخضراء، ولا أصرف نهاري بين سباق الخيل، وصيد الحمام، وحانات الرقص والشراب؟ كنتُ وما زلتُ اعتقد ان من كانت هذه حياته حقَّ عليه الملام، وها أنا الذي أطلب الهدوء والوحدة أُقابَل بالشغب والعبوس.

(يصمت آسفاً لانه تكلم، الا ان الكلام يعود متدفقاً من بين شفتيه)

يُعيرني انه رباني صغيراً. والله يعلم كيف رباني! انه أدخلني المدرسة وهل كان بوسعه أن يفعل أقلّ من ذلك! ويقول انه بمثابة الاب لي فأي حنوّ وطَّد هذه الابوّة؟ كنت أقضي في المدرسة شهوراً طويلة دون أن أراه، واذا زارني هو و... وهنَّ حملوا اليَّ الحلوى واللعبات وكل ما تجلبه الدراهم ولكنهم لم يكونوا ليعطوني منهم شيئاً. الدراهم أورثنيها أبي مثل ما أورثهم. أما قلوبهم فكانت مختومة كالقبور. كنت أبكي ــ أتسمع يا دكتور؟ قلتُ أبكي ــ كنت أبكي عند ما أرى رفاقي في احضان ذويهم محببين مدللين؛ أما هو فكان يأتي ويذهب بلا قبلة عطف، بلا

كلمة محبة ، بلا نظرة اهتمام لليتيم الصغير الذي كنته . وكم كنت مستعداً لأحبه ! وكم كنت اتمنى ان يتركني احبه دون ان يجمّد قلبي ! ولو علمت اليوم انه ينصحني مهتماً مخلصاً لسعدتُ بالتنازل عن رأيي وسارعتُ الى اتيان ما يشتهي . ولكنه ينصحني ليجعل لنفسه اهمية وليذلني ؛ ولو اذعنت لكلامه لحظةً ما تأخر عن تعبيره في اللحظة التالية (يتنهد) لا استنشق في هـذا البيت غير هواء المقت والكظيمة . انهم ينظرون اليَّ كدخيلٍ مغتصب . وهذه امراض عضّالة لا تستطيع معالجتها يا دكتور (تلتقي عيناه بعينيّ الطبيب وهو ينظر اليـه طويلاً بعطف يشبه المصادقة . فيهز رأسه فجأة ويحاول الابتسام) استميحك عفواً فقد مزجتُ قهوتك بالشكوى. (يهز كتفيه) ما احقر الشكوى وما احقر الشاكي ! (يتغلب على نفسه ويرسل زفرة عميقة) انتهى يا دكتور

الدكتور — (متجهاً نحو الباب) : نصحي اليك، وان كرهتَ الناصحين ، ان تخرج من نفسك بقدر الامكان . ان عكفك على ذاتك نزيد عواطفك رقةً وتهيجاً . احتكّ

بالناس ، اسمع ثرثرتهم ، شاركهم فيها ، اخرج الى الهواء الطلق ، تعاطَ الالعاب الرياضية . العبْ ، العب ، كن من ابناء جيلك لئلا تتعذب كثيراً

سميحة — (تقفز ضاحكة) : سامني مريضك فأمرّضه يا دكتور ! (الى شفيق) تعال معي الى الهواء الطلق ! تعال وكن رابع رفقائي في دور « التنس » هذا الصباح ! (يخرج الطبيب مسلماً ويحاول شفيق اتباعه فتسدّ سميحة الطريق قائلة) : لا تذهب هكذا . لئن ساءني ان اراك غاضباً فانه يحزنني ان اراك حزيناً. وعندما يضايقونك يضعف احتمالي وينفد صبري

شفيق — (ببرود) : يحزنكِ ! يسوؤك ! انك مثلهم جميعاً

سميحة — ما اجهلك بي ! لماذا لا تنظر اليّ ؟ لا ادري أ أنت محقّ ام متأثياس ، ولكن ميلي معك

شفيق — (بلا اكتراث ودون ان ينظر اليها) : عجائب !

سميحة — لو علمت اني في حاجة اليك ، واني شقية مثلك في هذا البيت لما كلمتني بهذه اللهجة

شفيق — (يتكلف الاهتمام التمثيلي) : شقية انت بين

حمَّامات البحر ، ولعب الكرة ، والسهرات الراقصات ، والسينما ، والتياترو ، ومغازلة ابناء الوجهاء امثال اخيك ؟ تعزي بالاثواب الجديدة ، والقلائد الكثيرة ، والكعاب الطويلة ؛ تعزي ولا تحزني ! (ينظر الى ساعته) مضى الوقت ارجوك ان تدعيني اخرج

سميحة — (بتأنٍ) : قلت اني في حاجة اليك

شفيق — (يخرج من جيبه مفكرة وقلم رصاص) : صحيح ، نسيت ؛ بماذا تريدين ان اجيئكِ من المدينة (منتظراً أن تتكلم ليكتب) بودرا ؟ خضاب ؟ عطر ؟ زهور ؟ شكولاتا ؟ اي شيء ؟

سميحة — (يظهر الحزن في وجهها . وتفسح له الطريق قائلة): لك ان تخرج

شفيق — (يخطو العتبة وهناك يتردد ذاكراً خشونته . ثم يلتفت ويعود نحو سميحة وينظر في وجهها متمتماً ما يشبه الاعتذار) : انك لا تنقمين عليَّ ، أليس كذلك ؟

سميحة — وماذا يهمك ؟

شفيق — لا يهمني ! لقد هنتُ على الآخرين فهانوا هم عليّ . لا يهمني شيء

سميحة — فهمتُ اني لا أهمك وانك لا تريد أن تعتني بأمري . أعدتَ لتقول هذا ؟

شفيق — عدتُ لأقول . . . (بتردد) أراكِ غير راضية

سميحة — حقاً لستُ راضية . اني شقية

شفيق — (لا يريد أن يتأثر) لستِ جادّة

سميحة — وهل من شقاءٍ أوفر جدًّا من أن تقصد زوجة متاتياس أن تزوجني لاحد أقاربها واسمه خريستوبوبولاندوبولس

شفيق — (يرفع يده كمن يقي رأسه لطمة) يا حفيظ ! ما كل هذا ؟

سميحة — كل هذا اسم واحد . (يائسة) اسم يملأ بطاقة الزيارة من أولها الى آخرها

شفيق — (مؤاسياً) هوّني عليكِ ! وماذا يقول متاتياس ؟

سميحة — وماذا يُنتظر من رجلٍ لا قيمة عنده الاّ للمال ، وكل اسمه متاتياس ؟

شفيق — (يضحك) لست أدري لماذا أعطوهُ هذا الاسم

سميحة — يظهر ان ابن جارة يونانية لنا كان يُدعى به . وربما كان نبوءة بأنه سيقترن بامرأة يونانية من ذوي قرباها خريستوبوبولاندوبولس هذا

شفيق — ممكن (يضحك . ثم تعود اليه هيئة التفكير شيئاً فشيئاً) اذاً تتخوّفين الارغام ؟ أيزعجك الارشاد المتتابع ، أم في هذا القلب الصغير شيء آخر ؟

سميحة — أنت طيب لجميع الرجال الاذكياء

شفيق — (يتفحص وجهها بدقة) وكيف عرفتِ جميع الرجال لتعلمي ان الاذكياء منهم . . . .

سميحة — (مشرقة الوجه) أعرف الجميع لاني أعرف

واحداً (تهز رأسها لتخفي خجلها) وانت اخبرني اسرارك : بين الكثيرات المفضّلات على الكثيرات ، والقليلات المفضّلات على الاخريات ، ألا يوجد واحدة . . .

شفيق — (يأتي اشارة مبهمة ونظره يتبعُ خطوط حلمٍ بعيد) ليس هـذا من شؤون الفتيات . وساروفيمك هذا من ابطال « التنس » ؟

سميحة — ان ذكاءك لمدهش ! هو زميلي وقد غلبته مرات مع انه لاعبٌ ماهر

شفيق — وقد نال حظوة في عينيك لأنه لاعبٌ ماهر أم لانه مثّل دور المغلوب ؟

سميحة — (تحلم) لستُ ادري . انه يجذبني خصوصاً ونحن وحدنا في الليل على شطّ البحر

شفيق — (متبرّماً) : وحدكما على شط البحر ، وفي الليل ، ما هذه الحكاية ؟

سميحة — (تتغير ملامحها وتجللها الهيبة والعظمة) : هنالك عطفة تؤدي الى الشط حيث طائفة صخورٍ لها صور

الضواري واشكال الكواسر . ينبسط امامها البحرُ بموجهِ المائية وتنهُّده العميق الفسيح . هناك تحت عيون النجوم أجلسُ على مقربةٍ منهُ ، اجلسُ في حماه ، فيتناجى هو والبحر صامتين واظلُّ حابسةً انفاسي لاستمع لنجواهما

شفيق — (مأخوذاً بهذا الشيء الجديد الذي لم يعهده فيها) : أشاعرة انتِ ! حقاً ان المرأة لغزٌ . (ولكنه يعود الى ما يشغله) ومن ذا الذي اكتشف هذه الخلوة ؟

سميحة — ومن ذا الذي يصنع الاعاجيب غيره ؟ اكتشفها وقال « تعالي » فذهبت

شفيق — (غير مسرور) أيكفي ان يقول « تعالي » لتذهبي ؟

سميحة — (تملأ عينيها مشاهد بعيدة) يكفي ان يقول « تعالي » لاذهب

شفيق — (جاداً) انصحك ألاّ تذهبي بعد الآن . (سكوت قصير . ثم يقول آمراً وبقوة هادئة) لا اريد ان تذهبي . أتفهمين ؟

سميحة — (تعود الى خفتها الاولى . مقلدة صوته) « نصحي اليك ألا تذهبي » « لا اريد ان تذهبي » (ثم بلهجة خطابية فخمة واشارة تمثيلية واسعة) اصغي خاشعة ، ايتها الشعوب ، فان اخا متاتياس يتكلم !

شفيق — (متغلباً على نفسه لا يريد أن يضحك) اسمعي يا بنيّة . انت لا تعرفين هؤلاء الشبان ولا تسمعين ما يتبجّحون به امام بعضهم بعضاً . يكفي الواحد منهم ان يعرف فتاةً معرفة سطحية وان تكون علاقته بها اجتماعية محضة ، فتجامله مجاملةً تقضي بها الاصطلاحات ، بل قد يكفي ان يراها مرةً واحدة ليذكرها بلهجةٍ توهمُ انه واقف على جميع دخائلها . لو علمت النساء جميع التعليقات ، والملاحظات ، وانصاف الابتسامات ، وانصاف النظرات ، وصنوف السكوت الخبيثة التي يشفعُ بها ذكرهنّ اولئك المتملقون ! آه لو علمت النساء الغافلات !

سميحة — شرير منكَ ان تعمد الى الوشاية

شفيق — هذا هو الواقع مع الاسف

سميحة — قد يوجد بين الرجال كمن وصفتَ ولكن هو لا يشبههم

شفيق — كلٌ امرأةٍ تُكبرُ بطلها وترفعه فوق الآخرين . اقول لكِ انه يكفي ان يصافحها . . .

سميحة — (بلهجة الغالب) وانا اقول لك انه لا يصافحني

شفيق — (مرتاباً) ألا تصافحينهُ قبل « التنس » وبعده ؟

سميحة — أُصافحه وقتئذٍ ، واصافحهُ كلما اجتمعت به في الاندية العامة كما اصافح غيره من معارفي . اما في تلك الخلوة القدسية ، فلا

شفيق — أَهي معاهدةٌ بينكما ؟

سميحة — تعاهدنا ولكن بغير كلام

شفيق — لم تتصافحا البارحة ، اما الغد فمن يضمنهُ ؟ لو مدَّ لكِ يدهُ ، نعم لو مدَّ يدهُ وقال « ضعي يدك هنا » فماذا انت فاعلة ؟

سميحة — (لا تريد أن تتخيل ذلك) : هذا غير ممكن .

هذا مستحيل

شفيق — ولكن هي لحظة ان المستحيل ممكن . لو مدّ يده غـداً وقال (يلفظ الكلمات بتأنٍ متعمداً) بلهجة قوله « تعالي » ، لو قال بتلك اللهجة » ضمي يدك هنا « فماذا انت فاعلة ؟

سميحة — (حائرة حزينة) اتركهُ ، أهرب ، ولا أعود ألتقي به . (ترفع رأسها مفاخرةً) غير أن الرجل الذي احتمي بحماه لا يُحرجني الى الهرب

شفيق — كم تحبينه ! (سميحة تضطرب كأن هذه الكلمة لمست من نفسها مكاناً مؤلماً فتسبل أجفانها وتسحّ دموعها ببطء . شفيق يتأملها) ألى هذا الحد ؟

سميحة — (تفتح عينيها فجأةً وتسأل بحرقة) شفيق، قل لي ! أتظن ان فتاة مثلي ، فتاة عادية مثلي ، تستطيع ان تسعد رجلاً حادّ الذكاء ؟

شفيق — (يبسم بحلم) أري جميع اعراض المرض بادية . . وأراك ككلّ امرأة تبالغين في قدر من تحبين . (يسكت

متأملا) أتعني ان يكون هـذا الغلام أهلاً للكنز الذي هو أنت . (ثم معاتباً ومداعباً معاً) وهكـذا أفقد اختي ساعة أجدها ! اذا سرق هو كل شيء ، فماذا يبقى لي ؟

سميحة — في صدر المرأة قلوب ، يا فيلسوف ، وعلى كلٍّ ان يجد القلب الذي يخصه . (عائدة الى الموضوع الرئيسي) خلاصة كل هذا اني اتكل عليك في دحر متاتياس وخريستوبولاندوبولوس وشركائهما

شفيق — سندحرهم ! ومعنا الدكتور سالم الذي احترمه لانه ليس على وفاق مع اختك زوجته . . مسكين ! اما سهراتك انتِ على شط البحر فسيكون لك من يرقبها ويحرسها ... يا اعناد النساء ! وفي ما عدا ذلك سندحرهم ، ولنا الفوز المبين !

سميحة — امين ! (تمضي باحثة عن صولجان «التنس» وشبكته وتنشد) « يا ليله يا بيضا يا نهار سلطاني » (ثم تغادر الغرفة بخطوات خفيفات راقصات)

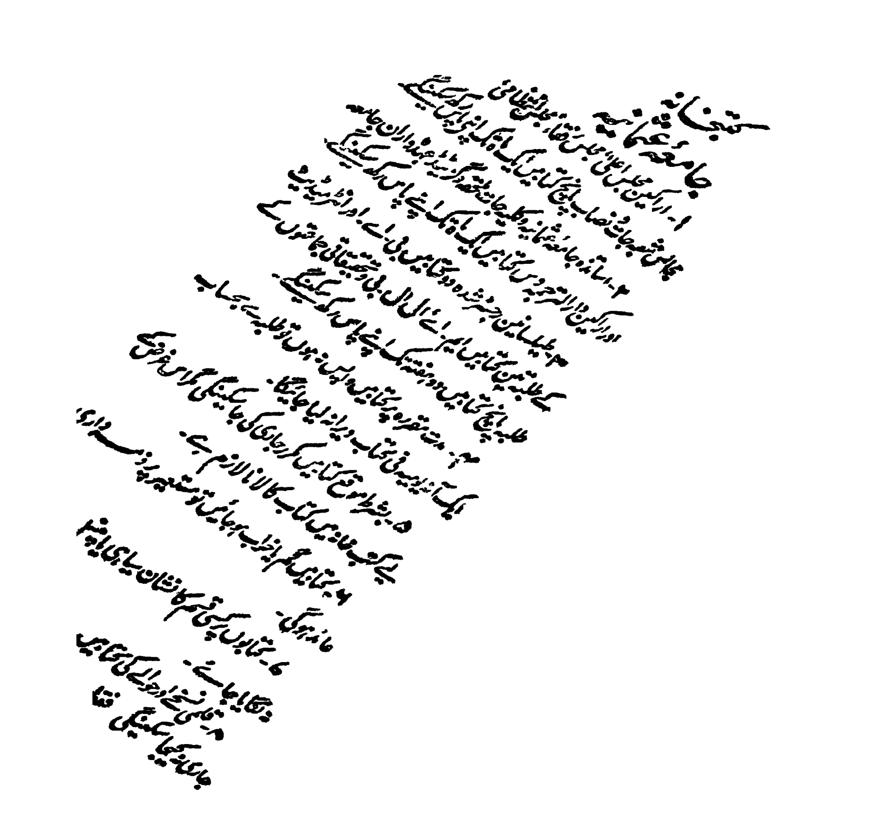
شفيق — (يخرج الى الشرفة منتظراً مرورها في الحديقة

وعند ما يراها ينحني قائلاً) سلّمي عليه !

سميحة — (تتظاهر بعدم الفهم) أي شيء ؟ ثم تضمّ أصابعها وتدنيها من شفتيها وتقول :) ما أحلى اسمك يا شفيق !

(الستار)

فهرس


کتب خانہ
جامعۂ عثمانیہ